افتراءات حول غايات الجهاد

الدكتور
محمد نعيم ياسين

افتراءات حول غايات الجهاد

الطبعة الأولـى
١٤٠٤هـ ـــ ١٩٨٤م

دار الأرقـــم
للنـــشر والتوزيـع
النقرة ـــ شارع العثمان
ص. ب. ٤٣٢٣١ . حولـــي

افتراءات حول غايات الجهاد

تمهيد :

منذ أن بزغ فجر الإسلام، وظهرت فاعلية الدعوة الإسلامية على وجه الأرض، وأعداؤها يلفقون لها ولأتباعها وأعلامها التهم، ويفترون عليهم، ويثيرون حول مفاهيمها ومبادئها الشبهات، وهذه هي الحرب الفكرية التي كانت وما زالت ملازمة للحروب العسكرية الاستعمارية، التي يشنها أعداء الإسلام على المسلمين.

ومن أساليب هذه الحرب الفكرية التي يستعملها الأعداء أنهم يبعثون بجواسيسهم الخبراء في شئون الفكر والنفس الإنسانية إلى البلاد الإسلامية، ليكتشفوا لهم مصادر الفاعلية، ومنابع القوة المعنوية عند الإنسان المسلم. وكان من مظاهر ذلك في القرون المتأخرة الحركة الاستشراقية الواسعة التي داهمت الشرق المسلم، ومن ورائها الحركة التبشيرية المتعصبة الحاقدة.

ولقد عرف أعداء الإسلام ــ بناءً على الدراسات التي قام بها المستشرقون والمبشرون ــ أن تلك القوة التي لمسوها في جند الإسلام، أساسها ومنبعها عقيدة الجهاد التي زرعها الإسلام في قلوبهم.

فصاروا يحسبون لهذه العقيدة كل حساب، ولم يكتموا هلعهم وخوفهم منها، وحذّروا أجيالهم الناشئة من المسلمين الذين يحملونها، وتواصوا فيما بينهم أن لا يبقوا لهذه العقيدة أثراً في نفوس أبناء المسلمين. وفيما يلي أذكر بعض تصريحاتهم التي تثبت هذه الحقائق:

وأبدأ بنصيحة نصح بها الدكتور كاسترو، الزعيم الشيوعي الكوبي، دبلوماسيا إسرائيليا، أنفق معه ساعتين، كما جاء في جريدة « جراما » الكوبية، وفي مجلة « كوبا سوشياليستا » كبرى المجلات الكوبية، فقد قال كاسترو لذلك الدبلوماسي الصهيوني: (**يجب على إسرائيل أن لا تترك حركات الفداء الفلسطيني تتخذ طابعا إسلاميا، لأن اكتساب هذه الحركات هذا الطابع العقائدي سيجعل منها شعلة من الحماس الذي هو مألوف في المجتمعات الإسلامية، وإن هذا الحماس الديني العربي سيستقطب جماعات إسلامية أخرى مما يجعل من المستحيل على إسرائيل أن تصون كيانها** ...)، ثم نصحه نصيحة أخرى ذات علاقة بالأولى فقال: (**على إسرائيل أن تسعى لجعل كل دولة عربية في جوارها دولة اشتراكية ماركسية؛ فالاشتراكية الثورية تلهي حركات التحرير الشعبية عن اللعب بنار العقائد الدينية، فتنشغل هذه الحركات** بمهام التحرير الاشتراكي ... وطالما أن إسرائيل دولة اشتراكية الجذور، فإن منتهى المطاف لأي حركة مقاومة عربية، ذات طابع اشتراكي، هو التعايش السلمي الاشتراكي العربي مع الاشتراكية الاسرائيلية)[١].

وهذه مجلة « جويش كرونيكال » البريطانية الصهيونية تحذر من يقظة الشباب الإسلامية، وبخاصة في الجامعات العربية والإسلامية، وتحذر الغرب والاتحاد السوفياتي معا، مما أسمته، المضاعفات الهائلة التي يمكن أن تترتب على نزعة الجهاد لدى المسلمين، فتقول في مقال افتتاحي بعنوان « الجهاد في سبيل الإسلام »: (إن خبراء الاستراتيجية السياسية الغربيين سوف يثبتون قصر نظرهم السياسي إذا ما تجاهلوا النداءات المتزايدة التي توجهها الأكاديميات والجامعات القوية في العالم الإسلامي من أجل إعادة النظر في المنافع المزعومة للتدين والعودة إلى التعاليم الأساسية في الإسلام ... ومضت

---

(١) نقله محمد محمود الصواف عن مقال الكاتب السياسي عمر حليق في صحيفة الحياة اللبنانية ــ معركة الإسلام أو وقائعنا في فلسطين بين الأمس واليوم ص ٢٠١ــ٢٠٣، الطبعة الأولى ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م.

المجلة تقول: لا العالم الغربي ولا الاتحاد السوفياتي يستطيعان أن يرقبا هادئي البال هذه اليقظة وهذه النهضة لعالم إسلامي لو أسيء توجيهه فإنه يستطيع أن يزعزع استقرار جزء كبير من العالم)[٢].

وفي مدارسهم يزرعون الخوف والرعب في قلوب أبنائهم من الإسلام، يقول أحد الكتاب المسلمين: (زرت زميلة أمريكية كانت تدرس معي في الجامعة، زرتها في مقر عملها في مدرسة من مدارس الأحد، التي تفتح أبوابها صبيحة كل أحد لتلقين الابتدائية أصول النصرانية وتعاليمها، وطلبت منها أن ترتب لي زيارة إلى أحد الفصول الدراسية، فَفَعَلت. ولقد فوجئت بما سمعت من المدرسة في ذلك الفصل: لم أسمع شيئا عن الدين المسيحي، وإنما كان الدرس كله يدور حول تخويف الطلبة من الإسلام وتشويهه وتبديل حقائقه، وبث الرعب في قلوب الطلبة من المسلمين المتوحشين. ولما عدت إلى زميلتي، وكانت المديرة المسئولة عن المدرسة، سألتها عن هول ما سمعت في الفصل وعن سبب ذلك كله، فقالت: أقول لك بكل صراحة: إن الإسلام دين زاحف، وإذا لم نحم أنفسنا بهذه الطريقة لزحف علينا، وأصبح يهددنا ويهدد مستقبلنا في بلادنا »[٣].

وفي روسيا تعقد المؤتمرات المخصصة للنظر في كيفية مواجهة الإسلام، وفكرة الجهاد المقدس، ففي صحيفة « برافدا » في عددها الصادر في ٥ / شباط / ١٩٦٤ م: (ينعقد الآن مؤتمر روسي موضوعه التربية الإلحادية في أواسط آسيا، حيث يشكل المسلمون كثرة عددية غزيرة ...) وقد صدر في روسيا أبحاث متعددة من مصادر رسمية عالية خلال السنوات التالية لهذا المؤتمر تؤكد مدى جسامة العقبة الإسلامية في طريق الحزب الشيوعي،

---

(٢) انظر صحيفة الدستور الأردنية: العددين ٤١٢٩، ٤١٣٠ تاريخ ٤ / ١٢ / ١٩٧٩ م و ٥ / ١٢ / ١٩٧٩ م.

(٣) محمد محمود الصواف ــ المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام ص ١٩٣، طبع دار الثقافة بمكة المكرمة سنة ١٩٦٥ م.

وتصف الإسلام بأنه ذو شأن مزعج في تأصيل كيان الرجعية، لأنه لا يقتصر على العقيدة ومراسم العبادة، بل يخلط ذلك بمواقف محددة في مسائل الاجتماع والاقتصاد والسياسة، وأن أتباعه الذين يؤمنون بذلك كله إيمانا متحجرا تصاحبه فكرة الجهاد المقدس هم أخطر صنف رجعي في كيان الاتحاد السوفيتي[٤].

من أجل ذلك جعل الأعداء معظم تركيزهم في محاربة المسلمين فكريا على إبطال فاعلية العقيدة الجهادية، وذلك بتنفيرهم من الإسلام بعامة، ومن الممارسات الجهادية التي ارتبط ذكرها بدعوة الإسلام على مر العصور بصورة خاصة.

وكان لهم في سبيل تحقيق هذا الهدف أساليب كثيرة يجمعهما اتجاهان اثنان:

الاتجاه الأول: يستهدف قتل الروح الجهادية عند أبناء المسلمين، بإغراقهم بصورة عملية في أوحال الشهوات عن طريق نوع من التربية يوكلون بها أصنافا كثيرة من عملائهم من المنافقين الذين ابتليت بهم أمة الإسلام، يأخذون بها أبناء جلدتهم، وعن طريق إيجاد مؤسسات شيطانية كثيرة وظيفتها امتصاص كل أثر للرجولة، أو للقوة المادية والمعنوية. وهذه هي الطريقة التي واجهوا بها جهاد النفس، وهو نوع مهم جدا من أنواع الجهاد في الإسلام[٥].

الاتجاه الثاني: فكري يستهدف إيجاد القطيعة بين ذراري المسلمين وعقائد الإسلام ومبادئه وأخلاقه، وكان ذلك بأسلوبين:

أحدهما: الترويج لأفكار ومعتقدات ونظريات مناقضة لمبادئ الإسلام، ومدعمة لاتجاههم التربوي القاتل للروح الجهادية عند شباب المسلمين.

---

(٤) نفسه ص ١٦٢،١٦٣.

(٥) انظر هذه الأنواع عند ابن قيم الجوزية ــ زاد المعاد ج ٢ ص ٣٨ــ٤٠ ــ المطبعة المصرية ١٣٧٩ هـ، وانظر كتاب محمد نعيم ياسين ــ الجهاد (ميادينه وأساليبه).

والثاني: إخراج كثير من الشبهات والافتراءات حول الإسلام وأعلامه، بصورة فيها كثير من التنميق والتزويق بشكليات يقصد بها الايهام باتباع الأسلوب العلمي في عرض تلك المفتريات.

وبحثنا هذا لن يتعرض لتفصيل الاتجاه الأول، وما تضمنه من طرائق وأساليب شيطانية كثيرة لإغراق الشعوب الإسلامية في رذائل مضادة للفضائل والأخلاق الإسلامية، كما أنه لن يتعرض لتفصيل الأفكار والمبادئ والنظريات المناقضة لمبادئ الإسلام، ولا لجميع ما أثير من الشبهات حوله، وإنما سنخصصه للكلام عن أبرز الافتراءات التي تمخضت عنها قرائح المبشرين والمستشرقين عن غاية الجهاد في الإسلام، ودوافع المجاهدين المسلمين، مظهرين، بعون الله تعالى، بطلانها وبعدها عن الحق والواقع وخبث نوايا مثيريها، وسنختم بحثنا إن شاء الله تعالى ببيان أهم رد فعل فكري نتج عن تلك الهجمة التبشيرية الاستشراقية على الجهاد، عند فريق من العلماء المسلمين المحدثين، موضحين ما نظنه انحرافا في فهم غايات الجهاد وقع فيه هذا الفريق من العلماء، نتيجة تلك الهجمة الشرسة على الجهاد والمجاهدين.

وعلى هذا سنجعل البحث في أربعة مطالب:

المطلب الأول: في ذكر أهم الافتراءات والشبهات التي أثيرت حول غاية الجهاد، والدوافع الكامنة وراء إثارتها، وسنتعرض في هذا المطلب لذكر أهم شبهتين أثارهما الأعداء حول الجهاد.

المطلب الثاني: في تفنيد الفرية الأولى.

المطلب الثالث: في تفنيد الفرية الثانية.

المطلب الرابع: في تصحيح الانحراف الذي وقع فيه بعض علماء المسلمين المحدثين حول غاية الجهاد وحكمة مشروعيته.



المطلب الأول

أبرز الشبهات التي أثيرت حول غايات الجهاد ودوافع المجاهدين

من ذلك المنطلق الذي أشرنا إليه في التمهيد، تناول أعداء الإسلام الجهاد والمجاهدين: فشوهوا حقيقة الجهاد، وفسروه تفسيرا منكرا، وصوروه للناس أسلوبا بربريا متوحشا للفتك وسفك الدماء، وكلما تكلموا عن المجاهدين نقلوا للناس صورة مواكب من الهمج، **مصلتة** سيوفها، متقدة صدورها بنار الغضب والعصبية تفتك بكل من لم ينطق بالشهادتين، وأن من دخل في الإسلام من البشر إنما فعل ذلك خوفا من الفتك والقتل، واستعملوا في هذا التزييف في صورة الجهاد والمجاهدين جميع ما أوتوا من خبرة وعلم ولباقة وسحر بيان(٦).

وأقوال المبشرين والمستشرقين في هذا المعنى وأشباهه كثيرة(٧)، رموها بين أبناء المسلمين عن طريق عملائهم ومؤسساتهم، لتفعل فعلها في عقول الجهلة والمهزومين، ولتدعم مواقف المنافقين الحاقدين.

---

(٦) انظر: المودودي ــ الجهاد في سبيل الله، من مجموعة رسائل عن الجهاد ص ٥، ٦ ــ الطبعة الثانية ١٣٨٩ هـ / ١٩٧٠ م، ومحمد محمود الصواف ــ المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام ص ١١٥ وعباس العقاد ــ ما يقال عن الإسلام ص ١٦٨ طبع بيروت سنة ١٩٦٦، ومحمد بن ناصر الجعوان ــ القتال في الإسلام ص ١٧ ــ الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.

(٧) نقل بعض هذه الأقوال كامل سلامة الدقس، وعزاها إلى مراجعها وقائليها من المستشرقين والكتاب الغربيين في رسالته « آيات الجهاد في القرآن الكريم » ص ٩٩، ١٠٠ طبع دار البيان في الكويت ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م.

ومن أمثلة ذلك ما ذهب إليه بعض كتاب القانون الدولي في الغرب من إدخال المسلمين في عداد الشعوب الهمجية التي يجب ألا تنال شرف الانتساب إلى الجماعة الدولية، فيقول أحدهم: (يكفي تمجيدا للكنيسة أنها أقنعت المسيحيين بوحدتها، وبوجوب تكوين جمعية دولية تقوم في وجه المسلمين الهمج)[٨]، ويقول آخر: (إن الحروب الإسلامية عدوانية توسعية)[٩]، ويقول فيليب حِتي: (وفي الواقع، إن الذي انتصر في الفتوح الأولى لم يكن الإسلام الذي هو الدين، بقدر ما كان الإسلام الذي هو الأمة، الدولة التي أنشأها محمد ﷺ، أي العصبية العربية، أما اصطباغ الموالي بالإسلام فقد تأخر قرنين أو نحو ذلك. ولقد اتفق لشبه جزيرة العرب القاحلة — والمحاطة بالماء من ثلاث جهات — مرارا كثيرة من قبل أن بلغ سكانها مبلغا احتاجوا معه إلى أن ينساحوا في بلاد الهلال الخصيب طلبا لحياة أكثر خصبا، أما في الزمان الذي نؤرخه فإن الدين هو الذي جاء بالشرارة التي أشعلت برميل البارود القومي)[١٠].

وله في هذا المعنى عبارة أكثر صراحة حيث يقول: (بدأت الحملات كغزوات يقصد بها الوصول إلى منافذ جديدة لروح القبائل الثائرة بعد أن حيل بينها وبين الحرب والخصومات ضمن ذلك النطاق الأخوي الذي حدده الإسلام، وكان الغرض منها في أكثر الأحوال الغنيمة) ثم قال: (وليست الإثرة الدينية هي ما حدا بالعرب إلى تدويخ الدول وفتح الأمصار، إنما هي الحاجة المادية التي دفعت بمعاشر البدو وأكثر جيوش الفتح منهم إلى ما وراء تخوم البادية الفقراء إلى مواطن الخصب والنماء في بلدان الشمال)[١١]. ويقول المستشرق أجناس جولد تسيهر: (وكانت البواعث الغالبة التي دفعت بالعرب

---

(٨) نفسه.

(٩) نفسه.

(١٠) فيليب حتي — الإسلام منهج حياة ص ١٦٠، ١٦١، ترجمة عمر فروخ — طبع بيروت — دار العلم للملايين ١٩٧٩ م.

(١١) انظر: كامل سلامة الدقس — آيات الجهاد في القرآن الكريم ص ١٠٠.

إلى القيام بالفتوح هي الحاجة المادية والطمع ... وهو ما يسهل تعليله بالنسبة للمركز الاقتصادي لبلاد العرب الذي خلق الحافز للهجرة من البلاد التي أصابها الفقر والاضمحلال واحتلال الأقاليم الأعظم ثراءً وخصبا. وقد هش العرب للدين الجديد على اعتبار أنه ذريعة لحركة الفتح هذه التي كانت تدعو إليها الضرورات الاقتصادية ... وهكذا صار التحول المواتي الذي اصطبغت به شئون الإسلام صبغة ظاهرية، عاملا من العوامل التي جعلت الدين الجديد ينبذ وراء ظهره منذ عهد سحيق في تاريخه، أفكار الزهد والتقشف التي غلبت عليه أول مرة، فالاعتبارات الدنيوية المحضة، والأماني المادية هي التي أمكنها أحيانا أن تشبع المساهمة الحماسية في نشر الديانة المحمدية ...)[١٢]. ويقول كاتب آخر ممن حملوا على عاتقهم مسئولية تشويه الجهاد في مفهومه وغاياته: (إن الحاجة تبرر كل عمل عدائي، وإن العرب كثيرا ما قاموا بأعمال عدوانية بحثا عن القوت)[١٣]. ويقول آخر: (إن مناخ الجزيرة أصيب بجفاف في القرن السابع مما دفع العرب إلى الهجرة منه ومهاجمة البلاد التي تتاخمها)[١٤]. ويقول ماكدونالد، المستشرق الذي كتب مادة الجهاد في دائرة المعارف الإسلامية: (الجهاد: نشر الإسلام بالسيف ..)[١٥]. ويقول آخر: (إن الجهاد هو أداة الإسلام لنشر دعوته وذلك بحمل جميع البشر على الايمان

---

(١٢) العقيدة والشريعة في الإسلام ص ١٢٢، ١٢٣، طبع القاهرة ــ دار الكتاب المصري ١٩٤٦ ترجمة محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وعلي حسن عبد القادر.

(١٣) انظر: محمد الغزالي في كتابه التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، دحض شبهات ورد مفتريات ص ١١٢، منشورات دار البيان ــ الكويت.

(١٤) نفسه.

(١٥) انظر: ظافر القاسمي ــ الجهاد والحقوق الدولية العامة في الإسلام ص ٢١٢ ــ نشر دار العلم للملايين ــ بيروت ــ الطبعة الأولى ١٩٨٢ م.

بالله ...)[١٦].

ويتكلم جولد تسيهر عن رسول الله محمد ﷺ بأسلوب ملؤه الحقد والسخرية، وغلافه الإيهام والتضليل، فيقول: (وبعد أن كانت الرؤيا تكشف له انهيار هذا العالم السيء انتقل فجأة إلى تصور مملكة في هذا العالم. وقد أدى هذا الطابع إلى نتائج كانت محتومة بسبب التغير السياسي الذي أثاره في الجزيرة العربية نجاح تبشيره، والدور الشخصي الذي قام به، وكان له الأثر الكبير في توجيه الدعوة، فهو الآن يحمل السيف في العالم، ولا يكتفي بعصاه التي يضرب بها الأرض، ولا بنفثات شفتيه لإبادة الكفرة! بل هو نفير الحرب الذي كان ينفخ فيه، وهو السيف الدامي الذي رفعه لإقامة مملكته ... إذ أن حالة البيئة التي شعر أن من واجبه العمل فيها بأمر الله لم تكن لتتيح له أن يعلل نفسه براحة مأمونة ... بل كان عليه أن يقوم بكفاح مادي في الأمة التي بعث فيها وفي العالم كله لضمان ذيوع دعوته، والاعتراف بسيطرتها وتعاليمها، وكان هذا الجهاد المادي العالمي هو الوصية التي تركها محمد لخلفائه. والنتيجة أنه لم يكن عنده أي إيثار للسلام!)[١٧].

هذه هي بعض أقوال أعداء الإسلام في غايات الجهاد،وافتراءاتهم حول الجهاد كثيرة، وأهمها كما تبين من أقوالهم فريتان:

الأولى: أن دين الإسلام يقوم على القهر والغلبة، وانتشاره في الأرض كان بالإكراه والإجبار، لا بالحجة والاقناع.

الثانية: أن السر في انتصارات المسلمين لم يكن ثمرة من ثمار الدين الحنيف، ولا نتيجة تربيته وإنما كان تلك الروح الثائرة عند العرب، وشغفهم

---

(١٦) انظر: مجيد خدوري ــ الحرب والسلم في شرعة الإسلام ص ٩٢ طبع بيروت ــ الدار المتحدة للنشر ــ الطبعة الأولى ١٩٧٣ م، وانظر: ت. وولتر وولبانك ومجموعة من الكتاب ــ تاريخ العالم والشعوب ص ١٨٩ مطبوع في انجلترا باللغة الانجليزية.

(١٧) العقيدة والشريعة ص ٢٧،٢٨.

بالحرب وحبهم للغزو والنهب والغنيمة ، والظروف الاقتصادية القاسية، ونحو ذلك(١٨).

هذه هي مفتريات الخائفين من الجهاد حول غاياته، ولولا اغترار بعض أبناء المسلمين بأقوال اولئك المستشرقين والمبشرين لما استحق مثل ذلك التهويش أن يشتغل في الرد عليه. ولكن قبل الاجابة عنه لا بد من إماطة اللثام عن نوايا اولئك المفترين مما سددوه من سهامهم إلى عقول أبناء الأمة الإسلامية:

الأهداف المقصودة من إثارة تلك الشبهات:

أولا: لقد علم أعداء الإسلام من المستعمرين والأمم الكافرة، بعد دراسة مستفيضة، أن الروح الجهادية عند المسلمين هي التي تقف أمام مطامعهم الأشعبية في غزو الشعوب من أجل استعبادها وامتصاص خيراتها، وهي التي تهدد أهدافهم التوسعية واستكبارهم في الأرض بغير الحق. وقد لمسوا أثرها في كل مكان استعمروه: في بلاد العرب خاصة وفي بلاد المسلمين عامة. ومن قبل حمل أحد رؤوسهم القرآن، ورفعه أمام أعضاء البرلمان وصاح فيهم: (ما دام هذا القرآن موجودا فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان)(١٩). وقد تقدم في تمهيد هذا البحث أقوال أخرى لبعض زعمائهم في التحذير والترهيب من عقيدة الجهاد. فابتغوا بتلك الشبهات قتل هذه الروح الجهادية في أبناء الأمة الإسلامية، وذلك بتحقير الجهاد والتنفير منه، وتصويره مظهرا من مظاهر التخلف والهمجية، الذي لا يليق بخلق الشعوب المتمدنة.

---

(١٨) انظر مزيدا من أقوال المستشرقين حول هذا الموضوع عند: عبد الله التل ــ جذور البلاء القسم الأول ص ٢٥٨ طبع بيروت ــ دار الإرشاد للطباعة والنشر ــ الطبعة الأولى ١٣٩٠ هـ / ١٩٧١ م، ومحمد عبد الله السمان ــ العقيدة والقوة معا ص ٩، ١٠، الطبعة الأولى ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م.

(١٩) انظر: عبد الله التل في جذور البلاء ــ القسم الأول ص ٢٠٣.

ومما يؤكد هذه النوايا الخبيثة لأولئك الذين أثاروا تلك الشبهات حول الجهاد أنها ظهرت في الوقت الذي رتب فيه أسيادهم وحكامهم من المستعمرين ظهور حركات وطوائف مرتدة، طلعت على الناس بنسخ الجهاد وإسقاط فرضيته في هذا الزمان. ومن هذه الطوائف القاديانية في الهند، وحزب تركيا الفتاة في تركيا(٢٠).

ثانيا: ومن جهة أخرى فقد استهدف المستشرقون والمبشرون من تشويه غايات السلف الصالح من أمتنا في جهادهم، ودوافعهم في قتال أعداء الله، وطواغيت الأرض، وتصويرها في حب الغزو والنهب والسلب واعتبارها ردود فعل لما كانوا يعيشون فيه من شظف العيش، وضيق الحال، وجدب الأرض وقلة الموارد، استهدفوا من ذلك تحقيق أمور خطيرة أهمها ما يلي:

١ ـ الإيحاء لأبناء الأمة الإسلامية بأن الأسباب التي دفعت سلفنا للقتال لم يعد لها وجود في هذه الأيام، لأنها كانت نابعة من ظروف اقتصادية، تبدلت وتغيرت وأن لقمة العيش التي كان يجري وراءها بدو الصحراء بالخيل والسيوف والرماح، يمكن الحصول عليها في هذه الأيام بغير جهاد وقتال، فلا داعي للجهاد ولا داعي للإعداد.

٢ ـ محاولة إخفاء السر الكامن وراء انتصارات المسلمين في معاركهم الأولى

---

(٢٠) يقول زعيم طائفة القاديانية ميرزا غلام أحمد: (لقد قضيت عمري في تأييد الحكومة الانجليزية ونصرتها وقد ألفت في منع الجهاد ووجوب طاعة أولي الأمر ـ الانجليز ـ من الكتب والاعلانات والنشرات ما لو جمع بعضها إلى بعض لملأ خمسين خزانة، وقد نشرت جميع هذا الكتب في البلاد العربية وتركيا، وكان هدفي أن يصبح المسلمون مخلصين لهذه الحكومة، وتمحي من قلوبهم قصص المهدي، والمسيح السفاح والأحكام التي تبعث فيهم عاطفة الجهاد وتفسد قلوب الحمقى) نقله الندوي عن كتاب ترياق القلوب عن زعيم القاديانية ـ انظر: محمد بن ناصر الجعوان ـ القتال في الإسلام ص ٤٠ ـ الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م طبع الرياض مطابع المدينة. وانظر أيضا دائرة المعارف الإسلامية ج ٧ ص ١٩٠، وجولد تسيهر ـ العقيدة والشريعة ص ٢٦١.

مع أهل الشر والطغيان، عن أبناء هذه الأمة، وأنه لم يكن يوما من الأيام عقيدة، ولا مبدأ ولا مثلا عليا، آمنوا بها بصدق وأخلصوا لها فضحّوا من أجلها بما آتاهم الله من قوة. وإنما هي ضرورة وظروف وصفات خاصة بأولئك الناس صنعتها تلك الظروف المؤقتة، وأنه لا سبيل إلى التأسي بهم والاقتداء بأحوالهم.

٣ ــ إنهم يريدون أن يلقوا في روع المسلمين في هذا الزمان أن الحرب مع الاستعمار بجميع أشكاله لم تكن يوما حرب عقيدة، وإنما كانت وما زالت حرب أسواق اقتصادية ومراكز وقواعد ومواقع استراتيجية، وأنه لا دخل للدين فيها. ويبتغون من وراء ذلك امتصاص كل ما تثيره العقيدة الإسلامية في أهلها من عزم وتصميم وتضحية، فيتخلصون من أقوى وأعظم الدوافع التي تحرك المسلمين لصد اعتداءاتهم وتعطيل مخططاتهم.

ومن جهة أخرى فإن صرف المسلمين عن منطلقهم الأصيل في الجهاد، وهو العقيدة يجعل وحدة الشعوب الإسلامية أمرا مستحيلا، ويحقق لأعداء الإسلام مبتغاهم في تحطيم هذه الوحدة، والحيلولة دون قيامها؛ ذلك أن أعداء الإسلام عرفوا أن وحدة الأمة الإسلامية تفوت عليهم جميع آمالهم، وتبطل مخططاتهم في استعباد شعوب هذه الأمة واستغلالها؛ فقد عرفوا من خلال دراسة التاريخ أن هذه الوحدة القائمة على أساس العقيدة هي التي وقفت أمام جميع محاولاتهم، ومحاولات غيرهم في غزو المسلمين، فهي التي ردت كيد الصليبيين إلى نحورهم على يد القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي، وهي التي أوقفت غزو التتار وردتهم على أعقابهم، ولذلك حسبوا لها ألف حساب، وما زالوا يخططون للحيلولة دونها بكل ما أوتوا من قوة. ولقد سجل أعداؤنا مخاوفهم من هذه الوحدة في كثير من المناسبات، وعلى ألسنة زعمائهم وعلمائهم، يقول القس سيمون: (إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب الإسلامية، وتساعد على التملص من السيطرة الأوربية .... من أجل ذلك يجب

أن نحول بالتبشير اتجاه المسلمين عن الوحدة الإسلامية)[٢١] .

ويقول لورنس براون : (إذا اتحد المسلمون في امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا ، أما إذا بقوا متفرقين ، فإنهم حينئذ بلا وزن ولا تأثير ، فيجب أن يبقى العرب والمسلمون متفرقين ليبقوا بلا قوة ولا تأثير)[٢٢]. ويقول : أرنولد توينبي : (إن الوحدة الإسلامية نائمة ، لكن يجب أن نضع في حسباننا أن النائم قد يستيقظ)[٢٣]. وجاء في دائرة المعارف البريطانية تحت كلمة Crusade :

(ورغم أن قادة الحملة الصليبية الأولى لم يستثمروا خلافات المحمديين كما ينبغي ، فإن الحقيقة تدل على أن تلك الخلافات خدمت الصليبيين إلى حد كبير ، إن وضع أمراء سوريا غير المتحدين ، والفرقة والانقسام بين العباسيين والفاطميين جعلت من الممكن الاستيلاء على المدينة المقدسة وتأسيس مملكة القدس ، وحينما قامت قوة في الموصل حوالي سنة ١١٣٠ م ، وكان في مقدورها أن توحد سوريا ، وحينما أمكن على يد صلاح الدين توحيد سورية المتحدة مع مصر قضي على قضية المسيحية اللاتينية في الشرق)[٢٤] .

ومن هنا بدأ أعداء الإسلام في البحث عن أنجح الأساليب في تحطيم هذه الوحدة ومنع قيامها ، فوجدوه في إبعاد المسلمين عن عقيدتهم ، وحصر منطلقاتهم في العمل والجهاد بأهداف دنيوية لا علاقة لها بالمعتقد الرباني ، فكان من ذلك إثارة الشبهات حول غايات المجاهدين المسلمين ، والحرص على إظهارها بأنها كانت دنيوية ، ولا دخل للإيمان فيها .

---

(٢١) انظر : جلال العالم ـــ قادة الغرب يقولون : دمروا الإسلام أبيدوا أهله ص ٥٥ طبع بيروت مطابع دار الأمل ـــ الطبعة الثانية ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .

(٢٢) نفسه ص ٥٥ .

(٢٣) آرنولد توينبي ـــ الإسلام والغرب والمستقبل ص ٧٣ تعريب نبيل صبحي طبع بيروت ـــ دار العربية ـــ الطبعة الأولى ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

(٢٤) انظر : عبد الله التل ـــ خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ص ١٣٤،١٣٣ الطبعة الثانية ـــ دار القلم .

٤ ــ اضف الى ماتقدم انهم يريدون قطع الصلة بين حاضر أمتنا وماضيها؛ بتشويه صورة سلفنا الصالح، وغاياتهم وأساليبهم؛ لأنهم يعلمون ولو بصورة إجمالية أن في حياة ذلك السلف وسيرتهم عناصر من القوة يخشون أن **يقتبسها** منهم هذا الجيل من أبناء المسلمين، فيقفوا عقبة كأداء أمام مطامعهم؛ ذلك أنهم أدركوا أن في سيرة كل صحابي قوة دافعة وزاداً لكل مسلم يتأسى بأولئك الكرام، فقاموا يقطعون الحبل الذي يصل أبناء الحاضر والمستقبل بأولئك الأبطال، فافتروا عليهم تلك الفرية، ورسموا لهم تلك الصورة، وزوروا سيرتهم بما تقدمت الاشارة إلى بعضه.

ثالثا: يريد أولئك المفترون أن يزرعوا في قلوب ذراري المسلمين أن هذا الاسم (المسلمين)، إنما الصق بهم الصاقا، وأكره عليه آباؤهم وأجدادهم، وأنه إن كان لأولئك الآباء والأجداد عذر في قبوله، وهو عذر الاكراه يوم كان للإسلام سلطان، فلا عذر لهؤلاء الذراري في البقاء عليه بعد أن زال الضغط والاكراه.

رابعا: ومن جملة أغراضهم أنهم يريدون بهذه الافتراءات أن يصرفوا أبناء الأمة الإسلامية عن رؤية أفاعيلهم فيها، وصورة حروبهم الهمجية، وأهدافهم الدنيئة من ورائها، فرأوا أن أحسن السبل إلى ذلك هو رسم صورة لجهاد المسلمين تهون بجانبها كل صورة مهما كانت قبيحة، يقول أبو الأعلى المودودي: (والعجب كل العجب أن الذين عملوا هذه الصورة، هم الذين مضت عليهم قرون وأجيال يتقاتلون ويتناحرون فيما بينهم، إرضاءً لشهواتهم الدنيئة، وإطفاءً لأوار مطامعهم الأشعبية، وتلك هي حروبهم الملعونة غير المقدسة، التي أثاروها على الأمم المستضعفة في مشارق الأرض ومغاربها، وجاسوا خلال ديارهم يبحثون عن أسواق لبضائعهم وأراض لمستعمراتهم التي يريدون أن يستعمروها ويستبدوا بمنابع ثروتها دون أصحابها الشرعيين .... فلم تكن حروبهم في سبيل الله، وإنما كانت في سبيل شهواتهم الدنيئة وأهوائهم الذميمة. وإن تعجب فعجب حملاتهم وغاراتهم على شعوب وادعة آمنة، لم يكن من ذنبها إلا أن الله قد أنعم عليها بمعادن وكنوز في أرضها، أو أنها كانت تملك تربة خصبة تغل أنواعا من الحبوب وخيرات الأرض. وإن لم يكن هذا ولا ذاك، فبحسبها ذنبا أنها يمكن

أن تكون سوقا لبضائعهم نافقة، أو مستعمرة لبني جلدتهم الذين ضاقت عليهم أرضهم فلفظتهم. وأدهى من ذلك وأمر أنهم كثيرا ما يغيرون على بلاد مطمئنة بمجرد أنها تقع في طريقهم إلى بلاد قد استولوا عليها من قبل، أو يريدون الآن أن يستولوا عليها ... وأي بلاد الله يا ترى قد سلمت من عدوانهم وما تخضبت أرضها بدماء أبنائها الزكية؟! ... لكن هؤلاء الدهاة، رسموا صورتنا بلباقة منكرة، وأبدأوا وأعادوا في عرضها بشكل هائل بشع قد سحب ليل النسيان على صورتهم الدميمة، حتى لا يكاد ينكرها أحد بجنب الصورة المنكرة التي صوروا بها تاريخنا ومآثر أسلافنا !!!)[٢٥].



(٢٥) الجهاد في سبيل الله ص ٦ـ٨.

المطلب الثاني

الجواب عن الافتراء الأول

لعل تلك النوايا الخبيثة التي لا تخفى على المتفحص لما افتراه أعداء الإسلام على الجهاد الإسلامي في مبادئه وتطبيقاته، فيها كفاية لأبناء الأمة الإسلامية أن لا يلتفتوا إليها، وأن يردوا الكيد لأهله، لأن البحث العلمي لا يتأتى مع الحقد والكراهية والنوايا الخبيثة.

ومع ذلك فإن فريتهم الأولى التي تقوم على أن الجهاد وسيلة استعملت لإكراه الناس على تغيير عقائدهم واعتناق عقيدة الإسلام، لا تعدو كونها شبهة ساقطة تتهافت أمام نصوص القرآن الكريم وتعاليم الرسول عليه الصلاة والسلام في القتال. وأمام الصورة الواقعية المشرقة لقتال أسلافنا في أهدافه ووسائله وكيفياته، ولمعاملتهم للشعوب التي منّ الله عليها في هذه الدنيا، بدخولها في ذمة المسلمين وعهدهم؛ ولا غرابة في ذلك لأنه لم تُعرف في التاريخ كله أمة تمسكت بعقيدتها ومبادئها مثل الأمة التي أخرجتها عقيدة الإسلام ونصوص القرآن وتربية الرسول ﷺ، فلم يعرف عنها أبدا أنها تسترت وراء الشعارات والعناوين كما تفعل الأمم الكافرة؛لأن هذا التطابق بين القول والعمل مبدأ إسلامي دعا إليه القرآن حيث قال الله تعالى: « **يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون * كَبُر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** »[٢٦].
والخروج عن هذا المبدأ يدخل في النفاق الذي لا يقبله الإسلام من أتباعه.
وفيما يلي نبين تهافت تلك الفرية أمام المبادئ الإسلامية المقررة في الكتاب وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم نتبع ذلك ببيان كذبها في الواقع:

---

(٢٦) الصف ــ الآية ٢.

أولا ــ المبادئ الإسلامية :

إن نصوص القرآن والسنة تقرر مبادئ إسلامية، كل مبدأ منها يدفع تلك الشبهة ولا يُبقي لها قيمة، فكيف إذا تضافرت واجتمعت ؟! .

١ ــ المبدأ الأول : لا إكراه في الدين :

وهذا المبدأ العظيم تضافرت عليه نصوص كثيرة لا حاجة لذكرها جميعا، وحسبنا بعضها كقوله عز وجل : « **لا إكراه في الدين قد تبيَّن الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم** »[٢٧]، وقوله تعالى : « **ولو شاء ربك لآمن في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** »[٢٨]، وقوله تعالى : « **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** »[٢٩]؛ فانظر كيف ربط الله عز وجل أمر العقيدة بمشيئة العبد، لا بالإكراه والإجبار، فجنة الله مفتحة الأبواب لمن أراد ولوجها، وكذلك ناره سبحانه ولا يساق أحد غصبا عنه إلى جنة أو نار .

فهذه الآيات وغيرها واضحة الدلالة على عدم جواز الاكراه في أمر العقيدة؛ يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى : « **لا إكراه في الدين** » : (أي لا تكرهوا أحدا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بيِّن واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يُكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونوَّر بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرها مقسورا)[٣٠]، ثم ذكر

---

(٢٧) البقرة ــ الآية ٢٥٦ .

(٢٨) يونس ــ الآية ٩٩ .

(٢٩) الكهف ــ الآية ٢٩ .

(٣٠) انظر تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٣١٠، طبع مصر ــ دار إحياء الكتب العربية ــ عيسى البابي الحلبي وشركاه .

ابن كثير بعض الروايات في سبب نزول تلك الآية(٣١).

هذا وسيتضح فيما سيأتي أن المسلمين التزموا بدلالات تلك النصوص بقدر ما يستطيعه البشر من الالتزام.

٢ ــ المبدأ الثاني: وظيفة الرسل البلاغ والإنذار والتبشير فيما يختص بأمر العقيدة:

وهذا مبدأ دلت عليه نصوص كثيرة أيضا وكلها يؤكد حقيقة واحدة، وهي أن الله عز وجل لم يرسل الرسل لإجبار الناس ولا لإكراههم على تغيير عقائدهم، وإنما لدعوة الناس بالحكمة إلى دين الله تعالى، وتبليغهم وإنذارهم وتبشيرهم بما نزل من الحق قال تعالى: « **يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا** »(٣٢)، وقال أيضا: « **وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين** »(٣٣)، وقال: « **رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة** »(٣٤)، وقال لرسوله الكريم محمد عليه الصلاة والسلام: « **وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد** »(٣٥)، وقال له أيضا: « **فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ** »(٣٦)، وقال له: « **فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم** »(٣٧)، وقال عز وجل: « **وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن**

---

(٣١) نفسه، وانظر أيضا الطبري ــ التفسير ج ٥ ص ٤٠٧ وما بعدها ــ طبع مصر ــ دار المعارف.

(٣٢) الأحزاب ــ الآية ٤٥.

(٣٣) الأنعام ــ الآية ٤٨، والكهف الآية ٥٦.

(٣٤) النساء ــ الاية ١٦٥.

(٣٥) ق ــ آخر آية.

(٣٦) الشورى ــ الآية ٤٨، وفي هذا المعنى انظر: الرعد ــ الآية ٤٠، النحل ــ الآية ٣٥، النور ــ الآية ٥٤، العنكبوت ــ الآية ١٨.

(٣٧) الغاشية ــ الآيات ٢١ــ٢٦.

تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد »[٣٨]؛ فإن الله عز وجل لم يأمر نبيه بأكثر من إيصال هداه إلى العباد فإذا تولوا عنه لم يجز له ولا لغيره أن يقصرهم عليه قصرا.

ولقد اتخذ المسلمون رسولهم، ورسل الله، أسوة وقدوة، والتزموا طريق الله التي دلَّ عليها الرسل ولم يخالفوها لأن هذا التأسِّي دعاهم إليه ربهم فقال سبحانه: « **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** »[٣٩].

٣ ـــ المبدأ الثالث: لا عبرة ـــ في الإسلام ـــ للإيمان المبني على الإكراه:

ذلك أن الإيمان محله القلب، واللسان معبر عنه ومفصح[٤٠]، ولا قيمة عند الله للإقرار باللسان إذا كان هذا الإقرار مخالفا لما انعقد عليه القلب، بل إن الذين يفعلون ذلك، وهم المنافقون، في الدرك الأسفل من النار وهم أشد عذابا من الجاحدين المجاهرين[٤١].

لذلك قال الله سبحانه وتعالى عن الأعراب الذين نطقوا بالإسلام قبل أن تستشعر الإيمان قلوبهم: « **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا**

---

(٣٨) آل عمران ـــ الآية ٢٠.

(٣٩) الأحزاب ـــ الآية ٢١.

(٤٠) انظر حقيقة الايمان في كتب العقيدة مثل شرح قصيدة ابن القيم ج ٢ ص ١٣٩ـــ١٤١ وهو لأحمد بن إبراهيم بن عيسى الشرقي ـــ المكتب الإسلامي الطبعة الأولى سنة ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م، والعقيدة الطحاوية مع شرحها ص ٣٧٣ المكتب الإسلامي ـــ الطبعة الرابعة ١٣٩١ هـ، وكتاب الإرشاد للجويني ص ٣٩٩، والفقه الأكبر لأبي حنيفة وشرحه لملا علي القاري ص ٨٧،٨٨ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ الطبعة الثانية ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م.

(٤١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ج ١ ص ١٤٧ المطبعة المصرية.

أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم »[٤٢].

وكما لا يعترف الإسلام بإيمان المكره فإنه لا يعترف أيضا بكفر المكره، لأن الإيمان والكفر من اختصاص القلوب، ولا سلطان لأية قوة أرضية عليها، وإنما السلطان لخالقها يصرفها كيف يشاء.

ولذلك فإن من الجهالة الجهلاء، أو الخبث المفضوح أن يقال بأن خلفاء الرسول عليه الصلاة والسلام وأتباع دينه كانوا يسعون من وراء حروبهم للحصول على اعترافات من الناس بالشهادتين، يعتبرها ربهم ولا يقيم لها وزنا.

٤ ــ المبدأ الرابع: الإيمان المعتبر في الإسلام هو الايمان المبني على النظر والتدبر:

وهذا مبدأ نطقت به آيات القرآن المكية والمدنية، قال تعالى: « **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر** »[٤٣]؛ فكأن الباري جل وعلا يقول لرسوله الكريم عليه الصلاة والسلام: إن تلك الآيات البينات إن لم تنفع مع أولئك الكفرة فإنه لا نفع في إسلام يكون ثمرة الإكراه والخوف والسيطرة، فلا تكرههم ولا تجبرهم. يقول سيد قطب في ظلال الآيات السابقة: « فذكر بهذا وذاك، ذكرهم بالآخرة وما فيها وذكرهم بالكون وما فيه، إنما أنت مذكر، هذه هي وظيفتك على وجه التحديد وهذا دورك في هذه الدعوة، ليس لك ولا عليك شيء وراءه ... فأنت لا تملك من أمر قلوبهم شيئا، حتى تقهرها وتقسرها على الإيمان، فالقلوب بين أصابع الرحمن لا يقدر عليها إنسان، فأما الجهاد الذي كتب بعد ذلك فلم يكن لحمل الناس على الإيمان إنما كان لازالة العقبات من وجه الدعوة؛ لتبلغ إلى الناس فلا يمنعوا من سماعها، ولا يفتنوا عن دينهم إذا

---

(٤٢) الحجرات ــ الآية ١٤.

(٤٣) الغاشية ــ الآيات ١٧ــ٢٢.

سمعوها، كان لازالة العقبات من طريق التذكير، الطريق الوحيد الذي يملكه الرسول ... بهذا يتحدد دور الرسول في هذه الدعوة ودور كل داعية إليها بعده ... إنما أنت مذكر، وحسابهم بعد ذلك على الله ولا مفر لهم من العودة إليه، ولا محيد لهم عن حسابه وجزائه. غير أنه ينبغي أن يفهم أن من التذكير إزالة العقبات من وجه الدعوة لتبلغ الناس وليتم التذكير، فهذه وظيفة الجهاد كما تفهم من القرآن ومن سيرة الرسول سواء، بلا تقصير فيها ولا اعتداء)[٤٤].

٥ ــ المبدأ الخامس: الدنيا دار ابتلاء، ولا ابتلاء مع إكراه:

من مقومات التصور الإسلامي عن الحياة الدنيا أنها دار ابتلاء، قال تعالى: « **وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا** »[٤٥]، وقال أيضا: « **ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم** »[٤٦]، وقال: « **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا** »[٤٧]، وقال: « **الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا** »[٤٨].

وإذا كانت هذه هي نظرة الإسلام إلى الحياة الدنيا وأنها قاعة امتحان فإن إكراه الناس على الدخول في الإسلام يتناقض تماما مع هذا التصور، لأن مقتضى الابتلاء أن يعطى الناس حرية الاختيار بين الممكنات، وليس ابتلاء ذلك الذي يجبر فيه المبتلون على اختيار الجواب الصحيح، يقول الإمام الرازي في تفسيره: (إنه تعالى لما بين دلائل التوحيد بيانا شافيا قاطعا للمعذرة، قال

---

(٤٤) في ظلال القرآن ــ المجلد الثاني ص ٥٦٥ــ٥٦٦ طبع بيروت ــ دار إحياء التراث العربي ــ الطبعة الخامسة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م.

(٤٥) هود ــ الآية ٧.

(٤٦) المائدة ــ الآية ٤٨.

(٤٧) الكهف ــ الآية ٧.

(٤٨) الملك ــ الآية ٢.

بعد ذلك: إنه لم يبق بعد إيضاح هذه الدلائل عذر لكافر في الاقامة على كفره إلا أن يقسر على الإيمان أو يجبر عليه، وذلك مما لا يجوز في دار الدنيا التي هي دار ابتلاء، إذ في القهر والإكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان، ومما يؤكد هذا القول أنه تعالى قال بعد هذه الآية « **قد تبين الرشد من الغي** » يعني ظهرت الدلائل ووضحت البينات، ولم يبق إلا طريق القسر والإلجاء، وذلك غير جائز)(٤٩).

٦ ــ المبدأ السادس: غاية القتال الإسلامي تخليص العباد من الضغوط الواقعة عليهم وتحقيق الجو المناسب للإختيار:

تلك هي العقيدة التي يريدها الإسلام، وذلك هو الإيمان الذي يقبله من العباد خالقهم، فهل إليه سبيل بالإكراه والقوة؟ وتلك هي النصوص الواضحة البينة التي تقرر أنه لا يجوز استعمال الإكراه لإدخال الناس في تلك العقيدة أو حملهم على ذلك الإيمان.

ولكن لماذا شرع القتال في الإسلام؟ ولماذا جعل فريضة من فرائض الدين وذروة سنام الإسلام؟.

نسارع في الجواب لنؤكد الحقيقة التي دلت عليها المبادئ الإسلامية السابقة وهي أن القتال في الإسلام لم يشرع لإكراه الناس على تبني العقيدة الإسلامية؛ وأن السيف لم يوجهه المسلمون يوما لمخاطبة القلوب، وإنما هو لكف الأيدي عن الظلم والصد عن سبيل الله.

وخلاصة القول في هذا أن النظرة الإسلامية تقوم على أساس أن الكون كله لله تعالى، والأرض أرضه والبشر مخلوقاته، استخلفهم في الأرض ليعمروها ويستثمروها، ويصلحوا فيها ولا يفسدوا، وأن صلاحها لا يكون إلا بسياسة الخلق فيها حسب قوانين الله وأحكامه ومناهجه، وأن فسادها نتيجة سياستها

---

(٤٩) التفسير الكبير ج ٢ ص ٣١٩ الطبعة الثانية ــ المطبعة العامرة الشرفية سنة ١٣٢٤ هـ .

بأهواء الناس، وليس لمخلوق فرداً كان أو جماعة أن يتسلط على عباد الله ويخضعهم لأحكامه، وإنما الحق في ذلك لله لأنه الخالق والمالك لكل شيء، وهو الذي صلحت بقوانينه ونواميسه السموات والأرض؛ فلا صلاح للبشر إلا بأحكامه وتوجيهاته. وإلا فلا بديل لها إلا الظلم والفساد والفوضى والتعدي ومجاوزة الحدود.

وبحسب تلك النظرة فإن ضلال الناس وجهلهم وبعدهم عن معرفة الله ومعرفة أحكامه وحقائق الكون، ووظيفتهم في هذه الدنيا، ما هو إلا ثمرة لما يفرضه المتسلطون والطغاة عليهم من الأنظمة الفاسدة والمناهج السقيمة والدعايات المضللة، والقيم الزائفة التي ينشرها اولئك المنتفعون بذلك الجهل والضلال، ولا سبيل إلى تخليصهم من الظلم والفساد إلا بإبعاد تلك الأنظمة والمناهج والقيم عن كواهلهم.

ويدل على تلك الحقائق من النصوص قول الله عز وجل: « **إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين** »(٥٠)، وقوله تعالى: « **إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه** »(٥١). وقوله تعالى: « **إن الشرك لظلم عظيم** »(٥٢)، وقوله تعالى: « **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** »(٥٣). وقوله تعالى: « **ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس** »(٥٤)، وقوله تعالى: « **إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون** »(٥٥)، وقوله تعالى: « **وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد** »(٥٦).

---

(٥٠) الأنعام ــ الآية ٥٧.
(٥١) يوسف ــ الآية ٤٠.
(٥٢) لقمان ــ الآية ١٣.
(٥٣) المائدة ــ الآية ٤٥.
(٥٤) الروم ــ الآية ٤١.
(٥٥) النمل ــ الآية ٣٤.
(٥٦) البقرة ــ الآية ٢٠٥.

ومن هذا الفهم يتضح دور المؤمنين في الأرض؛ فإنهم جند الله الذين آمنوا بتلك الحقائق فكلفهم ربهم بالتحرك والجهاد من أجل أن تكون الحاكمية لله وحده على البشر، ومن أجل أن تنتزع هذه الحاكمية من أيدي المتسلطين المعتدين على حقوق الألوهية، فينعم الناس بعدل الله المنزل إليهم ويتقوا بذلك شر الظلم والفساد الذي تثمره أهواء المتسلطين ولا ينبثق منها من الأحكام والأساليب في سياسة الناس وحكمهم وتوجيههم وتربيتهم.

فالمطلوب من هؤلاء المؤمنين فوق الدعوة بالحجة والبيان والتبليغ باللسان أن يزيحوا من طريق الدعوة أولئك الظالمين الجاثمين على صدور العباد ومقدراتهم، والذين يصدون الخلق عن معرفة الحق ولو كان ذلك باستعمال القوة والسلاح.

وهكذا فإن جند الله يتقدمون إلى الناس بعقيدة تعلموها من ربهم، يبلغونها لهم باللسان والحجة والبيان: فمن قَبِلَ فأخوهم في الدين، يسير في ركبهم ويحمل مثلما حملوا، ومن أبى تقدموا إليه بعدل الله المتمثل في شرائعه وقوانينه المنظمة لحياة الناس في جميع مجالاتها، فإن قبل اكتفي منه بذلك، ولم يكره على تغيير عقائده. وأما الذين لا يقبلون عدل الله، ويصرون على إقامة الحواجز والعقبات بين الحق والعدل وبين شعوبهم وأممهم، فهؤلاء يتقدم إليهم المجاهدون بالقوة والسلاح؛ ليزيحوهم من طريق دعوة الحق، فتنال شعوبهم نصيبها من عدل الإسلام في ضبط التعامل والعلاقات الدنيوية، وتأخذ حريتها في اختيار الدين الذي ترتضيه من غير إجبار ولا إكراه.

وبذا يتضح أن القتال الإسلامي ليس موجها ضد الأفراد بأعينهم، ولا لإجبار أحد على اعتناق الإسلام، وإنما هو قتال للأنظمة السياسية والاجتماعية التي تقوم على أساس العبودية للبشر بالتزام مناهجهم وتطبيق أحكامهم، وهو قتال موجه ضد القائمين على تلك الأنظمة، وضد وسائلهم ومؤسساتهم المسخرة لحماية تلك الأنظمة والمناهج والقيم. وأما الأفراد فالمقاتلون المسلمون لا يتعرضون لهم إلا بقدر ما يسهمون في المدافعة عن تلك الأنظمة[٥٧].

---

(٥٧) انظر: ابن تيمية ــ السياسة الشرعية ص ١١٩ مؤسسة مكة للطباعة والإعلام ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م والعقاد ــ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه =

ولذلك حرَّم الإسلام على المجاهدين أن يتعرضوا بسوء لجميع الناس الذين لا يشتركون في المعركة من شيوخ ونساء وأطفال ومزارعين ورجال دين في معابدهم كما هو مشهور في وصايا الرسول عليه الصلاة والسلام لأمراء جيوشه وقادته، ووصايا الخلفاء الراشدين لأمرائهم وقادتهم.

بل إن الإسلام ليفتح باب الرحمة للمقاتلين من الأعداء وزعمائهم ولا يحصر مصيرهم في القتل بل يقبل منهم التنازل عن مراكز التسلط التي جعلوا أنفسهم فيها، ويحفظ لهم دماءهم وأموالهم إذا كفوا عن الإمساك بخناق العباد، ويشملهم كغيرهم بعدله ورحمته.

وهكذا فإن الإسلام لا يعد القتال غاية في ذاته، وإنما هو وسيلة لتحقيق السلام الحقيقي بين العباد بكف أيدي الظالمين عن الاعتداء عن الإنسان في عقله وعواطفه وماله ومقومات إنسانيته، وليس المقصود الإنسان المسلم فحسب، وإنما المقصود كل الناس في كل بقعة من بقاع هذه الأرض، فإن الحق الذي يغار الله عليه وعباده المؤمنون لا يختلف باختلاف الحدود والبلاد، وفي هذا المعنى يقول سيد قطب: (والإسلام لا يعد القتال غاية لذاته ولا يأذن به إلا لغاية عظيمة. إن السلام هو غاية الإسلام .... ولكنه السلام الذي لا اعتداء فيه ولا ظلم ولا بغي ولا عدوان. أما حيث يقع البغي والعدوان على أي مقوم من مقومات الإنسانية الفاضلة، كحرية العقيدة وحرية العبادة والعدل في الحكم والعدل في الجزاء، والعدل في توزيع المغانم والمغارم والحقوق والواجبات، واستقامة السلوك الفردي والجماعي على حدود الله ...
أما حيث يقع البغي والعدوان على أي مقوم من هذه المقومات في أية صورة من الصور، سواء وقع من فرد على فرد أو من فرد على جماعة أو من جماعة على فرد أو جماعة، أو من دولة على دولة فالإسلام حينئذ لا يرضى بسلام يقوم على هذا العدوان، فليس السلام في الإسلام إلا تحقيق الخير والعدل على النهج الذي

= ص ٢٢٢ الطبعة الثالثة دار القلم ١٩٦٦ م وأحمد جمال ــ على مائدة القرآن « دين ودولة » ص ٣٥٧ الطبعة الثانية ١٣٩٣ هـ نشر دار الكتاب اللبناني.

رسمه الله للعباد)[58].

إن ذلك المعنى يدل عليه بعض نصوص القرآن الكريم وسيرة رسول الله ﷺ في جهاد الكافرين، وسيرة خلفائه المهديين رضي الله عنهم:

أما النصوص القرآنية فنختار منها قول الله عز وجل: « **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** »[59]؛ فإن من جملة أهداف الدعوة الإسلامية وهي دعوة كل رسول أرسله الله تعالى ملاحقة الظلم والفساد، واجتثاث أصله من حياة الناس ونشر العدل بينهم جميعا.

وقول الله تعالى: « **وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها** »[60]؛ فإن نصرة المظلومين ومساعدة المضطهدين واجب شرعي، وقتال الأعداء عندئذ قتال في سبيل الله.

ويجمع تلك المعاني قول الله جلَّ وعلا مبينا غاية القتال التي لا يجوز أن يتوقف قبلها ما دام في المؤمنين قوة: « **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير** »[61]؛ فإن الأمر بالقتال في هذه الآية الكريمة مغيا بغايتين:

ـــ الأولى: تتعلق بأمر عدمي، وهي انعدام فتنة الناس عن الدين الحق، والعقيدة الصحيحة، والرؤيا الواضحة.

ـــ والثانية: تتعلق بأمر وجودي وهو صيرورة الدين كله لله، بمعنى أن يصبح الجميع خاضعا لسلطان الله عز وجل، بحيث تصبح القوة والسيطرة والهيمنة لأحكام الله في الأرض، ولا يكون قوة ولا سيطرة للكفار، وإن وجدوا في الواقع، فالإسلام لا يسعى لمحو الكفار من الأرض كما يزعم المفترون، وإنما يريد أن يأخذ منهم القوة ولا يتركها لهم في أية بقعة من بقاع الأرض، لأنها إن بقيت

---

(٥٨) من « في ظلال القرآن » بتصرف بسيط ـــ المجلد الخامس ص ٦٠٤.

(٥٩) الحديد ـــ الآية ٢٥.

(٦٠) النساء ـــ الآية ٧٥.

(٦١) الأنفال ـــ الآية ٣٩.

في أيديهم كانت الفتنة وكان الظلم وكان الفساد واستعباد العباد للعباد.

ولأن هذه الآية نص في غاية القتال، ولأنها جعلت هدفا للملبسين الذين يقصدون تشويه حقائق الدين أو تحريفها في أذهان المسلمين، فإننا نرى من الفائدة الإطناب في تفسيرها وتوضيح علاقتها بقوله تعالى: « **لا إكراه في الدين** »، دفعا لكيد الماكرين وتصحيحا لما قد يحدثه ذلك الكيد من تحريف لكلمة الجهاد وغايته في أذهان بعض المحدثين من علماء المسلمين، ومن أجل ذلك نثبت هنا كلاما شافيا في الموضوع لسيد قطب في ظلال تلك الآية من سورة الأنفال، يقول:

(**إن قول الله تعالى: « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »** يقرر حكما دائما للحركة الإسلامية في مواجهة الواقع الجاهلي الدائم. ولقد جاء الإسلام ليكون إعلانا عاما لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية للعباد، ومن العبودية لهواه. وذلك بإعلان ألوهية الله وحده — سبحانه — وربوبيته للعالمين، وأن معنى هذا الاعلان الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها، والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض الحكم فيه للبشر في صورة من الصور .....

ولابد لتحقيق هذا الهدف الضخم من أمرين أساسيين:

— أولهما: دفع الأذى والفتنة عمن يعتنقون هذا الدين ويعلنون تحررهم من حاكمية الانسان ويرجعون بعبوديتهم لله وحده، ويخرجون من العبودية للعبيد في جميع الصور والأشكال، وهذا لا يتم إلا بوجود عصبة مؤمنة ذات تجمع حركي تؤمن بهذا الاعلان العام، وتنفذه في عالم الواقع، وتجاهد كل طاغوت يعتدي بالأذى والفتنة على معتنقي هذا الدين أو يصد بالقوة وبوسائل الضغط والقهر والتوجيه من يريدون اعتناقه.

— وثانيهما: تحطيم كل قوة في الأرض تقوم على أساس عبودية البشر للبشر، وذلك لضمان الهدف الأول ولإعلان ألوهية الله وحدها في الأرض كلها بحيث لا تكون هناك دينونة إلا لله وحده فالدين هنا بمعنى الدينونة لسلطان الله، وليس هو مجرد الاعتقاد.

ولا بد هنا من بيان الشبهة التي تحيك في الصدور من هذا القول على حين أن الله سبحانه وتعالى يقول: « **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** » ....

إن الذي يعنيه هذا النص « **ويكون الدين كله لله** » هو إزالة الحواجز المادية المتمثلة في سلطان الطواغيت، وفي الأوضاع القاهرة للأفراد، فلا يكون هناك ــ حينئذ ــ سلطان في الأرض لغير الله، ولا يدين العباد يومئذ لسلطان قاهر إلا سلطان الله، فإذا أزيلت هذه الحواجز المادية ترك الناس أفرادا يختارون عقيدتهم أحرارا من كل ضغط، على ألا تتمثل العقيدة المخالفة للإسلام في تجمع له قوة مادية يضغط بها على الآخرين، ويحول بها دون اهتداء من يرغبون في الهدى، ويفتن بها الذين يتحررون فعلا من كل سلطان إلا سلطان الله ... إن الناس أحرار في اختيار عقيدتهم على أن يعتنقوا هذه العقيدة أفرادا، فلا يكونوا سلطة قاهرة يدين لها العباد، فالعباد لا يدينون إلا لسلطان رب العباد، ولن تنال البشرية الكرامة التي وهبها لها الله ولن يتحرر الإنسان في الأرض إلا حين يكون الدين كله لله، فلا تكون هناك دينونة لسلطان سواه ... ولهذه الغاية الكبرى تقاتل العصبة المؤمنة ... فمن قبل هذا المبدأ وأعلن استسلامه له قبل منه المسلمون إعلانه هذا واستسلامه ولم يفتشوا عن نيته وما يخفي صدره وتركوا هذا لله ... ومن تولى وأصر على مقاومة سلطان الله قاتله المسلمون معتمدين على نصر الله)(٦٢).

خلاصة:

فيتلخص مما تقدم أنه ليس من بين أهداف القتال في الإسلام إجبار الناس على عقيدة الإسلام، وأن قلوب العباد وعقولهم ليست محلا للإكراه أبدا، وإنما شرع القتال في الإسلام لدفع الفتنة عن المؤمنين في الأرض كلها، سواء تمثلت هذه الفتنة في عدوان يشنه الكفار على المسلمين في دارهم أو تمثلت في ضغوط مادية أو معنوية يتسبب بها الكفار على أولئك الذين يدخلون

---

(٦٢) في ظلال القرآن ــ المجلد الثالث ص ٨٥٥،٨٥٦.

في الإسلام أو يريدون الدخول فيه، وهم في ديار الكفار.

كما شرع القتال في الإسلام لتحرير العباد من الضغوط وأنواع الإكراه التي تمنعهم من اختيار عقائدهم بحرية، ولا يتحقق هذا الهدف إلا بتحطيم مراكز القوى الكافرة التي هي مصدر تلك الضغوط أو مصدر حمايتها. وصورة تحقق هذا الهدف في الواقع العملي عندما يعرض المسلمون على الأعداء أحد التخييرات الثلاثة: الإسلام أو الدخول في ذمة المسلمين وعهدهم أو القتال، أن يختار الكفار المعروض عليهم الدخول في ذمة المسلمين. فعندئذ يتركون على دينهم ويصبحون من رعايا الدولة الإسلامية، وتطبق عليهم أحكام الإسلام الدنيوية، فلا زنا ولا ربا ولا ظلم ولا فساد، ولكن ليس لأحد من المسلمين أن يجبر ذميا على ترك دينه والدخول في دين الإسلام، فإن فعل يكف عن ذلك ويعزر عليه، وهذا هو المقصود بقوله تعالى: « **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** »(٦٣)، أي حتى يستسلموا ويعلنوا استسلامهم بقبول إعطاء الجزية إسهاما في نفقات الدولة الإسلامية التي تكفل لجميع رعاياها من مسلمين ومعاهدين حماية النفس والمال والعرض والحرمات.

٧ ــ مبادئ تحكم كيفية القتال الإسلامي:

لم يعرف في التاريخ كله أسلوب في القتال يراعي كرامة الإسلام وإنسانيته، كأسلوب القتال الإسلامي: فلا تعذيب ولا تمثيل ولا غدر بعد عهد ولا مفاجأة قبل إعلام العدو بالتخييرات الثلاثة المعروفة.

بل إن أول عامل يعتمد عليه جيش الإسلام في استنزال النصر من عند الله عز وجل التقوى، وعفة النفس والوفاء بالعهد والبعد عن الفاحشة، والمروءة

---

(٦٣) التوبة ــ الآية ٢٩ وانظر في تفسير سيد قطب ــ في ظلال القرآن ــ المجلد الرابع ص ١٨٩، ١٩٠.

واحتساب الأجر عند الله تعالى، وتجنب البغي والحقد والانتقام عند الظفر واتقاء البطر ومراءاة الناس في الحرب[٦٤].

روى حارث بن نبهان عن أبان عن النبي ﷺ أنه قال: (انهوا جيوشكم عن الفساد، فإنه ما فسد جيش قط إلا قذف الله في قلوبهم الرعب وانهوا جيوشكم عن الغلول، فإنه ما غل جيش قط إلا سلط الله عليهم الرَّجَلَة، وانهوا جيوشكم عن الزنى، فإنه ما زنى جيش قط إلا سلط الله عليهم الموتان)[٦٥].

وقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى قائده سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ومن معه من الأجناد يقول: (أما بعد، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم؛ فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا، واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا: إن عدونا شرٌّ منّا فلن يسلط علينا وإن أسأنا، فرب قوم سلط عليهم شر منهم كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفرة المجوس « **فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا** »[٦٦]، واسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم ....)[٦٧].

---

(٦٤) انظر: أحمد جمال – على مائدة القرآن ص ٣٥٩ ومحمد رشيد رضا تفسير المنار « تفسير القرآن الحكيم » ج ١٠ ص ١٧٢ طبع شركة الطباعة الفنية المتحدة ١٣٤٩ هـ أو طبعة دار المنار مصر ١٩٥٤ م.

(٦٥) انظر الماوردي – الأحكام السلطانية ص ٤٤ طبع مصر – مصطفى البابي الحلبي – الطبعة الأولى ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م.

(٦٦) الاسراء – الآية ٥.

(٦٧) انظر: علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي – أخبار عمر ص ٢٨٥ الطبعة الأولى.

ولقد كان أعداء الإسلام يشهدون ويقرون للمجاهدين المسلمين بالأخلاق الحربية العالية، من ذلك أنه لما قدمت مُنهزمة الروم على هرقل وهو بأنطاكية، دعا رجالا من عظمائهم فقال: ويحكم! أخبروني ما هؤلاء الذين تقاتلونهم؟ أليسوا بشرا مثلكم؟ قالوا: بلى. قال: أفأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافا في كل موطن، قال: ويلكم! فما بالكم تهزمون كلما لقيتموهم؟ فسكتوا، فقال شيخ منهم: أنا أخبرك أيها الملك من أين تؤتون. قال: أخبرني. قال: إذا حملنا عليهم صبروا، وإذا حملوا علينا صدقوا، ونحمل عليهم فنكذب، ويحملون علينا فلا نصبر. قال: ويلكم فما بالكم كما تصفون وهم كما تزعمون؟ قال الشيخ: ما كنت أراك إلا وقد علمت من أين هذا؟ قال: من أين هو؟ قال: لأن القوم يصومون النهار ويقومون بالليل ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا يظلمون أحدا، ويتناصحون بينهم، ومن أجل انا نشرب الخمر ونزني ونركب الحرام وننقض العهد ونغصب ونظلم ونأمر بما يسخط الله وننهى عما يرضي الله ونفسد في الأرض. قال صدقتني، والله لأخرجن من هذه القرية فما لي في صحبتكم خير وأنتم هكذا، قالوا: نشهدك الله أيها الملك تدع سورية وهي جنة الدنيا وحولك من الروم عدد الحصى والتراب ونجوم السماء ولم يؤت عليهم[٦٨].

ومن المبادئ الأخلاقية التي يجب علي الجيش المسلم أن يلتزم بها في قتاله مع الكفار ما يأتي:

(١) وجوب إبلاغ دعوة الإسلام إلى الكفار قبل مقاتلتهم، وتحريم المباغتة لمن لم يسبق تبليغه؛ فلا يجوز في الإسلام ابتداء قوم بالقتال إذا لم تبلغهم الدعوة،

ـ ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م ـ مطابع دار الفكر بدمشق، وأحمد جمال ـ على مائدة القرآن ص ٣٥٨، ٣٥٩ وعبد الله التل ـ خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ص ٤١٤.

(٦٨) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ـ عيون الأخبار ـ المجلد الأول ص ١٢٦، ١٢٧ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

ولم يعرفوا ما يراد منهم، بل فرض على المجاهدين أن ينذروا عدوهم ويعلنوه بالحرب حتى لا يؤخذ على غرة، فقد يلجأ للتفاهم ويؤثر السلم فيدخل في الإسلام أو يدخل في ذمة المسلمين(٦٩). وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا بعث سرية قال لأميرها: « إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال، فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم وكفّ عنهم: ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوا فاقبل منهم وكفّ عنهم، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن أجابوا فاقبل منهم وكفّ عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم »(٧٠)، وقد قال طلحة رضي الله عنه: (كان رسول الله ﷺ لا يقاتل المشركين حتى يدعوهم)(٧١).

---

(٦٩) هذا المبدأ متفق عليه بين فقهاء المسلمين، ولم يختلفوا في وجوب تطبيقه على من لم تبلغهم دعوة الإسلام بصورة من الصور، وإنما اختلفوا في وجوبه في حق من وصلتهم الدعوة، فقال بوجوبه جماعة منهم المالكية، ومنهم من قال بالندب ــ انظر في ذلك: محمد بن يوسف المواق ــ التاج والإكليل مطبوع مع مواهب الجليل ــ ج ٣ ص ٥٣٠ ــ الطبعة الأولى بمصر سنة ١٣٢٩ هـ، ومحمد بن أحمد بن رشد « الجد » ــ المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات الشرعيات لأمهات مسائلها المشكلات ج ١ ص ٢٦٦ طبع مصر ــ مطبعة السعادة ــ الطبعة الأولى، ومحمد بن أحمد السرخسي ــ شرح السير الكبير ج ١ ص ٧٧ تحقيق صلاح المنجد طبع القاهرة ١٩٥٧ م. وابن حجر العسقلاني ــ فتح الباري ج ٦ ص ٨٢ طبع المطبعة البهية المصرية، والسرخسي ــ المبسوط ج ١٠ ص ٣٠ طبع مصر ــ مطبعة السعادة ــ الطبعة الأولى ١٣٢٤ هـ، وابن قدامة ــ المغني ج ٩ ص ٢١٠ مطابع سجل العرب ــ الطبعة الأولى ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م، والكاساني ــ بدائع الصنائع ج ٧ ص ١٠٠ مطبعة الجمالية بالقاهرة ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠.

(٧٠) أخرجه مسلم ــ انظر شرح النووي على صحيح مسلم ج ١١ ص ٣٧،٣٨ المطبعة المصرية.

(٧١) السرخسي ــ شرح السير الكبير ج ١ ص ٧٧.

ومن أقوال الفقهاء في وجوب التزام هذا المبدأ وبيان حكمته:

– يقول الماوردي: (والصنف الثاني لم تبلغهم دعوة الإسلام فيحرم علينا الاقدام على قتالهم غرة، وأن نبدأهم بالقتل قبل إظهار دعوة الإسلام لهم، وإعلامهم من معجزات النبوة وإظهار الحجة بما يقودهم إلى الاجابة)[٧٢].

– ويقول الكمال بن الهمام في بيان حكمة هذا المبدأ: « ولأن بالدعوة يعلمون أنا ما نقاتلهم على أخذ أموالهم وسبي عيالهم فربما يجيبون إلى المقصود من غير قتال، فلا بد من الاستعلام)[٧٣].

– وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز يكتب لأمرائه بوجوب التزام هذا المبدأ ويعلله بقوله: (لأنا إنما نقاتلهم على الدين، وأنه يخيل إليهم أنما نقاتلهم على الغلبة فلا يقاتَلون حتى يتبينوا)[٧٤].

بل ذهب جماعة من الفقهاء إلى أنه إذا بدأ القائد بقتال عدو لم يدعه إلى الإسلام ولم ينذره بالحجة، فقتلهم غرة وبياتا ضمن ديات نفوسهم وكانت كديات المسلمين، وقيل كديات بعضهم بين بعض[٧٥].

هذا هو أدب الإسلام في إعلان الجهاد على أعدائه، فأين هذا مما تفعله الدول الكافرة، التي تعتبر المباغتة في الهجوم من البراعة العسكرية، فتجد الدولة تظهر الود لعدوها وتخفي عنه أحقادها وأطماعها، وقد تعقد معه معاهدة صداقة وعدم اعتداء إمعانا في المكر والخديعة ثم تعمد إلى مفاجأته بالعدوان لتجهز عليه دون مشقة وعناء[٧٦].

(٢) تحريم قتل المدنيين، ومن لم ينصب نفسه لقتال المسلمين: فيحرم في شريعة الإسلام قتل النساء والولدان والمرضى والشيوخ والفلاحين وأصحاب

---

(٧٢) الأحكام السلطانية ص ٣٧.

(٧٣) فتح القدير ج ٤ ص ٢٨٥ طبع مصر – مطبعة مصطفى محمد.

(٧٤) المواق – التاج والإكليل ج ٣ ص ٥٣٠، ابن رشد الجد – المقدمات الممهدات ج ١ ص ٢٦٦.

(٧٥) الماوردي – الأحكام السلطانية ص ٣٨.

(٧٦) محمد شديد – الجهاد في الإسلام ص ١٣٧ طبع بيروت – مؤسسة الرسالة.

الصناعات(٧٧) إلا إذا اشتركوا في الحرب ضد المسلمين ومع ذلك لا يجوز قتل النساء والولدان المشتركين في الحرب إلا إذا كانوا مدبرين(٧٨).

وقد دل على هذا المبدأ سنة الرسول القولية والعملية، من ذلك:

ـــ عن ابن عمر أن النبي ﷺ رأى امرأة مقتولة في بعض مغازيه فأنكر قتل النساء والصبيان(٧٩).

ـــ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال: « اخرجوا باسم الله تعالى، تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع »(٨٠).

ـــ وروي عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: « لا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا صغيرا ولا امرأة ولا تغلوا »(٨١).

ـــ وأوصى أبو بكر رضي الله عنه قائده يزيد بن أبي سفيان فقال له: (إنك ستجد قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له .... وإني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما، ولا تقطعن شجرا مثمرا، ولا تخربن عامرا، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا

(٧٧) السرخسي ـــ المبسوط ج ١٠ ص ٢٩،٥. ابن رشد الحفيد ـــ بداية المجتهد ج ١ ص ٤٠٠،٣٩٩ طبع مصر ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م، ابن تيمية ـــ السياسة الشرعية ص ١٩٩، الحطاب ـــ مواهب الجليل ج ٣ ص ٣٥٠ـــ٣٥٢، الشوكاني ـــ نيل الأوطار ج ٧ ص ٢٦٢،٢٦١ طبع مصر ـــ مصطفى البابي الحلبي ـــ الطبعة الثالثة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م، ابن عابدين ـــ الحاشية ج ٣ ص ٣١٠ دار سعادت ـــ المطبعة العثمانية، الكمال ابن الهمام ـــ فتح القدير ج ٤ ص ٢٩٠، الماوردي ـــ الأحكام السلطانية ص ٤١.

(٧٨) الماوردي ـــ الأحكام السلطانية ص ٤١.

(٧٩) أخرجه البخاري ومسلم ـــ انظر ابن حجر العسقلاني ـــ بلوغ المرام ص ٢٦٩ طبع مصر ـــ نشر المكتبة التجارية سنة ١٣٥٢ هـ. وانظر الإمام مالك بن أنس ـــ الموطأ ص ٢٧٧ ـــ كتاب الشعب.

(٨٠) رواه أحمد ـــ انظر الشوكاني ـــ نيل الأوطار ج ٧ ص ٢٦١.

(٨١) رواه أبو داود ـــ ذكر ذلك ابن رشد في بداية المجتهد ج ١ ص ٤٠٠.

لمأكلة ولا تحرقن نخلا ولا تغرقنه، ولا تغلل ولا تجبن »(٨٢).

— وروي أن رسول الله ﷺ قال لرجل: « الحق خالدا فقل له: لا تقتلوا ذرية ولا عسيفا »(٨٣).

— وعن زيد بن وهب قال: (أتانا كتاب عمر رضي الله عنه وفيه: لا تغلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا وليدا واتقوا الله في الفلاحين)(٨٤).

تلك وصايا رسول الله ﷺ لجند الرحمن وهم يخوضون القتال مع الكفار، ملؤها الرحمة والعدل، وفيها البراءة من الظلم والانتقام والوحشية والهمجية التي كانت وما زالت الصفة الغالبة على حروب الكفرة سواء كانت مع المسلمين أو مع بعضهم بعضا. فإذا ذكرت تلك الحروب ذكر معها الدمار الذي يأتي على القرى والمدن ويهلك الحرث والنسل والذي لا يفرق بين من يقاتل ومن لا يقاتل، ولا بين صغير وكبير ولا بين رجل وامرأة، وإنما يأتي على الجميع دون تمييز(٨٥).

(٣) ومن المبادئ الإسلامية المتفق عليها في معاملة الكفار أثناء قتالهم وجوب احترام إنسانية الانسان، وحرمة استعمال الأساليب البربرية التي لا يحتاج إليها، والتزام الرحمة بالنفس الإنسانية ما كان إلى ذلك سبيل.

وهذا لأن القتال في الإسلام ليس دافعه شهوة الانتقام عند المقاتلين وغير مقصود لذاته كما تقدم، وإنما له دوافع كريمة سبق ذكرها، فكل اسلوب لا يحتاج إليه في تحقيق أهداف الجهاد يحرم استعماله، وكل ما جاز استعماله من الأساليب القاسية، فإنه يقدر بقدر الضرورة وما زاد عنها فهو حرام. ومن مظاهر هذا المبدأ العظيم:

أ — يحرم على المقاتلين المسلمين أن يمثلوا بأفراد العدو بعد قتلهم، ويدل على

---

(٨٢) رواه مالك بن أنس — الموطأ ص ٢٧٧،٢٧٨.

(٨٣) الشوكاني — نيل الأوطار ج ٧ ص ٢٦٠.

(٨٤) ذكره ابن رشد في بداية المجتهد ج ١ ص ٤٠٠،٤٠١.

(٨٥) انظر: محمد شديد — الجهاد في الإسلام ص ١٣٨، ومحمد بن ناصر الجعوان — القتال في الإسلام ص ٢١٨.

ذلك أخبار صحيحة عن رسول الله ﷺ: فعن سليمان بن بريدة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيرا، ثم قال: « اغزوا على اسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا ... »(٨٦).

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا بعث أمراء الجيوش أوصاهم بتقوى الله العظيم ثم قال عند عقد الألوية: باسم الله وعلى عون الله وامضوا بتأييد الله بالنصر وبلزوم الحق والصبر، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. لا تجبنوا عند اللقاء ولا تمثلوا عند القدرة ولا تسرفوا عند الظهور، ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا، وتوّقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند حمة النهضات وفي شن الغارات، ولا تغلوا عند الغنائم ونزهوا الجهاد عن عرض الدنيا، وابشروا بالرباح في البيع الذي بايعتم به، وذلك الفوز العظيم(٨٧).

ب ــ ويحرم قتل العدو صبرا وتعذيبا، فقد فرض الإسلام على المسلمين الإحسان في كل شيء وبخاصة القتل والذبح، فقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « إن الله كتب عليكم الإحسان في كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحدَّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته »(٨٨).

وأخرج أبو داود عن أبي يعلى قال: غزونا مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فأتي بأربعة أعلاج من العدو، فأمر بهم، فقتلوا صبرا بالنبل، فبلغ ذلك أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه فقال: سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن قتل الصبر، فوالذي نفسي بيده لو كانت دجاجة ما صبرتها فبلغ ذلك عبد الرحمن فأعتق أربع رقاب(٨٩).

---

(٨٦) أخرجه مسلم ــ انظر ابن حجر العسقلاني ــ بلوغ المرام ص ٢٦٨.

(٨٧) ابن قتيبة الدينوري ــ عيون الأخبار ــ المجلد الأول ص ١٠٧،١٠٨.

(٨٨) رواه مسلم ــ انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٣ ص ١٠٦.

(٨٩) أبو داود ج ٣ ص ١٣٥ طبع تركيا ــ استانبول.

بل ذهب الإسلام في الرحمة في القتال إلى أبعد من هذا عندما يدعو أتباعه إلى اجتناب الأساليب القاسية المؤلمة أثناء دوران رحى الحرب، إذا استطاعوا ذلك؛ فقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه »(٩٠).

ج ــ كذلك لا يجوز القتل بالتحريق بالنار، فإذا تمكن المسلمون من العدو لم يجز تحريق أفرادهم بالنار. ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: (بعثنا رسول الله ﷺ في بعث فقال: إن وجدتم فلانا وفلانا لرجلين من قريش فأحرقوهما بالنار، ثم قال رسول الله ﷺ حين أردنا الخروج: إني كنت أمرتكم أن تحرقوا فلانا وفلانا بالنار وإن النار لا يعذب بها إلا الله فإن وجدتموهما فاقتلوهما)(٩١).

هذا إذا قدر المسلمون على العدو، وأما رميهم قبل أخذهم بالنار: فإن أمكن أخذهم بدونها لم يجز رميهم بها، وأما إذا عجزوا عنهم بغير هذه الوسيلة فلا بأس برميهم بها عند أكثر العلماء(٩٢).

د ــ يحرم حمل أجزاء القتلى إلى القادة أو الولاة؛ فلا يجوز قطع الرؤوس والأطراف وغيرها وحملها إلى قائد الجيش أو الأمير، وقد كانت هذه وما زالت عادة أهل الجاهلية في حروبهم، فجاء الإسلام فأبطلها لأنها نوع من المثلة التي حرمها الله تعالى.

ذكر عن عقبة بن عامر الجهني أنه قدم على أبي بكر برأس « يناق » البطريك فأنكر ذلك، فقيل له: يا خليفة رسول الله إنهم يفعلون ذلك بنا.

---

(٩٠) انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٦٧٨ ــ الكويت ــ المطبعة العصرية ١٣٩٧ هـ.

(٩١) رواه أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي وصححه ــ انظر الشوكاني ــ نيل الأوطار ج ٧ ص ٢٦٢، ٢٦٣ وانظر ابن العربي المالكي ــ عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي ج ٧ ص ٦٦ طبع بيروت ــ دار العلم للجميع. وانظر ابن هشام ــ سيرة النبي ج ٢ ص ٣٠٢ طبع القاهرة سنة ١٣٨٣ هـ.

(٩٢) انظر: ابن قدامة الحنبلي ــ المغنى ج ٩ ص ٢٨٧.

قال: فاستنان ــ أي اقتداء ــ بفارس والروم؟ لا يحمل إليَّ رأس إنما يكفي الكتاب والخبر(٩٣).

(٤) ومن المبادئ الإسلامية في كيفية القتال تحريم التخريب والاتلاف والتدمير مما لا تقتضيه الأعمال الحربية. ومع وجود خلاف معروف بين الفقهاء المسلمين في مدى تطبيق هذا المبدأ وما يجوز إتلافه ومالا يجوز، وشروط ذلك(٩٤) فإن القدر المتفق عليه عندهم يتناول تحريم ما لا فائدة في إتلافه وإفساده، لما تقدم من نهي الرسول عليه الصلاة والسلام عن الفساد في الحرب، كما أخرج أبو داود عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « أعفّ الناس قتلة أهل الإيمان »(٩٥)، ولقول الرسول عليه الصلاة والسلام: « من ذبح عصفورا بغير حقه سأله الله عز وجل عنه يوم القيامة، قيل وما حقه؟ قال: يذبحه ذبحا ولا يأخذ بعنقه فيقطعه »(٩٦)، ولما تقدم من وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه للقائد يزيد بن أبي سفيان حين أوصاه فيها بعشر خلال منها: عدم قطع الأشجار المثمرة وعدم تخريب العامر ولا قتل الحيوانات ولا تحريق النخل أو تغريقه.

(٩٣) انظر: السرخسي ــ شرح السير الكبير ج ١ ص ١١٠ والشيخ أحمد الدردير ــ الشرح الكبير مع حاشية الدسوقي ج ٤ ص ١٧٩ مطبعة عيسى الحلبي بمصر.

(٩٤) يمكن معرفة تفصيل هذا الخلاف بالرجوع إلى الكتب الفقهية مثل الأم للشافعي ج ٤ ص ١٩٩ ــ طبعة مصورة عن طبعة بولاق ١٣٢١ هـ، والهداية لأبي بكر المرغيناني ج ٤ ص ١٠٢ طبع مصر ــ مصطفى الحلبي ١٣٥٦ هـ، وبداية المجتهد لابن رشد الحفيد ج ١ ص ٤٠٢، والمغنى لابن قدامة الحنبلي ج ٩ ص ٢٨٩،٢٩٠، والمحلى لابن حزم ج ٧ ص ٢٩٤،٢٩٥ مطبعة المنيرية بالقاهرة سنة ١٣٥٠ هـ، والقتال في الإسلام لمحمد بن ناصر الجعوان ص ٢١٢،٢١٣.

(٩٥) انظر: حسن البنا ــ السلام في الإسلام ص ٤٥، وعبد الرحيم عنبر المصري ــ هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري ج ١ ص ٤١ طبع مصر ــ مطبعة الرغائب الطبعة الثانية سنة ١٣٤٠ هـ.

(٩٦) انظر مسند أحمد ج ٢ ص ١٩٧ طبع استانبول ١٤٠٢ هـ / ١٩٧٢ م.

(٥) احترام العهود والمواثيق والشروط: يتشدد الإسلام في التزام هذا المبدأ تشددا لم يعرف ولن يعرف في دين أو نظام أو عرف عام أو خاص، بحيث لا يترك مجالا لأتباعه لنقض ما أبرموه من المواثيق مهما كانت المصلحة في النقض، ومهما كانت الأضرار الناتجة عن الالتزام. وهذه الحرمة العظيمة التي جعلت للعهد في الإسلام ثمرة نصوص واضحة محكمة قطعية الدلالة من كتاب الله الكريم وسنة رسوله عليه الصلاة واسلام:

ففي القرآن أوامر صريحة بوجوب الوفاء بالعهد، ونهي عن نقضه، من ذلك قول الله عز وجل: « **وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا** » وفي سورة النحل أمر بالوفاء وترهيب من النقض بأسلوب بليغ مؤثر؛ حيث يشبه الله سبحانه وتعالى ناقض العهد بامرأة حمقاء تعمل طوال وقتها في غزلها، حتى إذا قاربت الانتهاء من ذلك الغزل نقضته، وأعادته كما كان قبل الغزل ثم بدأت تغزل من جديد، وهو تصوير يوحي بأن الوفاء بالعهود في الإسلام غاية تقصد لذاتها وأنه فرض من فروض الإسلام يجب القيام به مهما كانت النتائج، وليس مجرد إجراء مقصود لتحقيق مصالح خاصة بالمسلمين، وتظهر هذه المعاني في قوله تعالى: « **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا، إن الله يعلم ما تفعلون * ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة، إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون *** »(٩٧).

فالمصالح التي تتعلل بها الدول في العصر الحديث لنقض المعاهدات التي أبرمتها مع غيرها لا تصلح في الإسلام سببا للنقض، ويحذر القرآن من الوقوع تحت ضغط هذه المصالح، فلا يبرر النقض أن يكون فيه علو شأن الأمة الإسلامية(٩٨).

وفي آية أخرى حقَّر القرآن من شأن ناقضي العهود، وجعل عليهم

---

(٩٧) النحل ــ الآيتان ٩١، ٩٢.

(٩٨) انظر: محمد شديد ــ الجهاد في الإسلام ص ٤٧.

اللعنة والخسران، فقال عز وجل: « **والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار** »(٩٩).

وتبلغ حرمة العهد في الإسلام إلى أن يترك بسببها نصرة المؤمنين على المعاهدين وإن وقعوا تحت عدوانهم، قال تعالى: « **والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير** »(١٠٠).

يقول ابن كثير في تفسير هذا النص القرآني: (يقول الله تعالى: وإن استنصركم هؤلاء الأعراب الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدو لهم فانصروهم فإنه واجب عليكم نصرهم، لأنهم إخوانكم في الدين إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار بينكم وبينهم ميثاق، أي مهادنة إلى مدة فلا تخفروا ذمتكم ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم. وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما)(١٠١).

ومن سنة رسول الله في التشديد على الوفاء بالعهود وتحريم نقضها: ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة »(١٠٢).

بل إن رسول الله عليه الصلاة والسلام حرَّم على المسلمين اتخاذ أي إجراء يعتبر مقدمة للنقض أو سبيلا إليه، أو يعد انتقاصا للالتزام الكامل بالعهد، وإن لم يكن نقضا مباشرا في حد ذاته، ومن هذا أنه كان بين معاوية وبين أهل الروم عهد وكان يسير في بلادهم حتى إذا انقضى العهد أغار عليهم،

---

(٩٩) الرعد ــ الآية ٢٥.

(١٠٠) الأنفال ــ الآية ٧٢.

(١٠١) تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٣٢٩، طبع مصر ــ دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي).

(١٠٢) رواه الترمذي وقال عنه: حسن صحيح ــ انظر ابن العربي ــ عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي ج ٧ ص ٧٧.

فإذا رجل على دابة أو على فرس وهو يقول: الله أكبر وفاء لا غدر، وإذا هو عمرو بن عبسة، فسأله معاوية عن ذلك، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من كان بينه وبين قوم عهد، فلا يحلن عهدا، ولا يشدنه حتى يمضي أمده أو ينبذ إليهم على سواء » قال فرجع معاوية بالناس(١٠٣).

ويجب الوفاء بالعهد على كل مسلم مهما كان معطيه: رجلا أو امرأة أو حرا أو عبدا، أميرا أو من عامة الناس لقول الرسول عليه الصلاة والسلام: « ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم »، قال الترمذي: ومعنى هذا عند أهل العلم أن من أعطى الأمان من المسلمين فهو جائز على كلهم(١٠٤)، وفي عهد عمر بن الخطاب حاصر المسلمون بقيادة أبي عبيدة عامر بن الجراح حصنا من حصون العراق، وأوشكوا أن يفتحوه ولكن عبدا مسلما من جنود الجيش كتب أمانا لأهل الحصن، دون أن يعلم بأمره أحد، فقال المسلمون: إنه عبد، وليس أمانه بشيء، وتمسك أهل الحصن بالأمان، وقالوا: لسنا نعرف الحر من العبد. فكتب أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأله رأيه، فرد عليه عمر بكتاب جاء فيه: (إن العبد المسلم من المسلمين، ذمته كذمتكم، وإن الله عظم الوفاء فلا تكونون أوفياء حتى تفوا، فوفُّوا لهم وانصرفوا عنهم)(١٠٥).

والوفاء بالعهد عند المسلمين سبب يستنزل به العون والنصر من الله عز وجل، والغدر سبب في نقمة الرب، وحجب النصر، وغلبة العدو عليهم؛ كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص يقول له: (إن لاعب أحد منكم أحدا من العجم بأمان أو قرفه بإشارة أو بلسان كان لا يدري الأعجمي ما كلمه به، وكان عندهم أمانا، فاجروا له ذلك مجرى الأمان، وإياكم والضحك. والوفاء الوفاء فإن الخطأ بالوفاء بقيّة وإن الخطأ بالغدر التهلكة، وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم وإقبال ريحهم واعلموا أني أحذركم أن

---

(١٠٣) رواه الترمذي وقال عنه: حسن صحيح ــ انظر المرجع نفسه ج ٧ ص ٧٦.

(١٠٤) المرجع ذاته.

(١٠٥) محمد شديد ــ انظر: الجهاد في الإسلام ص ١٤٥،١٤٦.

تكونوا شينا على المسلمين وسببا لتوهينهم)(١٠٦).

(٦) ومن المبادئ القتالية الإسلامية أنه: (إذا رجحت كفة المسلمين على أعدائهم في المعركة وظهرت الغلبة لهم، كان عليهم بحق القرآن الكريم أن يكفوا عن القتل، ويكتفوا بالأسر ليمنوا على الأسير بعد ذلك بحريته أو يفتدوا به مثله من أساراهم، فيحسنوا إلى إنسانيين من عباد الله)(١٠٧)، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: « **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منًّا بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها** »(١٠٨).

ومع أن فقهاء المسلمين اختلفوا في جواز قتل الأسرى، ومع أن جمهورهم ذهبوا إلى جواز قتلهم واسترقاقهم فإننا مع القول الذي يحرم قتل الأسير ولا يرى استرقاقه إلا معاملة بالمثل. وليس هذا لأن اختيار هذا القول المرجوح في الفقه الإسلامي أوقع في الإجابة عن اتهامات أعداء الإسلام في معاملته لأسرى الحرب، وإنما لقوة دليله ولاقتصار القرآن عليه. وعلى أية حال فإن أكثر الآراء الفقهية تشددا في حكم الأسرى يظل في ميزان العدل والرحمة راجحا على جميع الممارسات التي شهدها التاريخ وما زال يشهدها، مما يصدر عن الكفار في معاملة الأسرى إذا ما أطرحنا جانبا الشعارات البراقة والقواعد النظرية التي لا تجد لها في العادة أي مجال في التطبيق العملي. ومن كان في شك من هذا فلينظر ماذا كان يفعل الفرنسيون بأسراهم من الجزائريين المسلمين عندما كانوا يحاولون التخلص من ظلمهم واستعمارهم، ولينظر ماذا كانت تفعل أمريكا بالأسرى من أهل فيتنام، ولينظر في كتب التاريخ ليعرف ماذا كان يفعل الصليبيون والتتار في الأسرى من المسلمين، وكيف كان الأسبان يعاملون أساراهم من مسلمي الأندلس عندما وقعت الكارثة وانتصروا على دولة الإسلام وتمكنوا من المسلمين في تلك البلاد.

هذا وإن أحسن من عبَّر عن الرأي الذي اخترناه في حكم الأسرى هو

---

(١٠٦) انظر: علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي ــ أخبار عمر ص ٢٨٤.

(١٠٧) حسن البنا ــ السلام في الإسلام ص ٤٤.

(١٠٨) محمد ــ الآية ٤.

صاحب الظلال حيث قال في تفسير الآية السابقة ملخصا رأيه في الموضوع: (والخلاصة التي ننتهي إليها أن هذا النص هو الوحيد المتضمن حكم الأسرى وسائر النصوص تتضمن حالات أخرى غير حالة الأسر، وأنه هو الأصل الدائم للمسألة وما وقع بالفعل خارجا عنه كان لمواجهة حالات خاصة، وأوضاع وقتية، فقتل بعض الأسرى كان في حالات فردية يمكن أن يكون لها دائما نظائر وقد أخذوا بأعمال سابقة على الأسر لا بمجرد خروجهم للقتال، ومثال ذلك أن يقع جاسوس أسيرا، فيحاكم على الجاسوسية لا على أنه أسير، وإنما كان الأسر مجرد وسيلة للقبض عليه.

ويبقى الاسترقاق. وقد سبق لنا في مواضع مختلفة من هذه الظلال القول بأنه كان لمواجهة أوضاع عالمية قائمة وتقاليد في الحرب عامة، ولم يكن ممكنا أن يطبق الإسلام في جميع الحالات النص العام « **فإما منًّا بعد وإما فداءً** » في الوقت الذي يسترق أعداء الإسلام من يأسرونهم من المسلمين، ومن ثم طبَّقه الرسول ﷺ في بعض الحالات، فأطلق بعض الأسارى منًّا، وفادى ببعضهم أسرى المسلمين، وفادى بعضهم بالمال، وفي حالات أخرى وقع الاسترقاق لمواجهة حالات قائمة لا تعالج بغير هذا الاجراء. فإذا حدث أن اتفقت المعسكرات كلها على عدم استرقاق الأسرى فإن الإسلام يرجع حينئذ إلى قاعدته الايجابية الوحيدة وهي « **فإما منًّا بعد وإما فداءً** »، لانقضاء الأوضاع التي كانت تقضي بالاسترقاق، فليس الاسترقاق حتميا وليس قاعدة من قواعد معاملة الأسرى في الإسلام .....)(١٠٩).

ونضيف إلى هذا الذي ذكره صاحب الظلال أن الرق الذي سمح به الإسلام يختلف اختلافا جوهريا عن ذلك الرق الذي كانت تسمح به نظم الدول الكافرة من رومان وفرس وغيرهم، والذي كان أشد من الاعدام على النفس الإنسانية؛ ذلك أن الذي سمح به الإسلام ليس إلا معنى من معاني الرحمة التي شرعها الإسلام في الحرب، فأبدل حكم الاعدام وهو القتل بهذا

(١٠٩) في ظلال القرآن ــ المجلد السابع ص ٤٤٧،٤٤٨.

النوع من السجن، وهو الرق بعد الأسر ثم جعل لهذا السجن بعد ذلك عدة منافذ يستطيع الأسير فيها أن يسترد حريته بكل سهولة، هذا في الوقت الذي أوصى الإسلام بالرقيق وحثَّ على معاملتهم بما يليق مع الكرامة الانسانية، وحرم ظلمهم بأية وسيلة وجعل تحريرهم من أعظم القربات عند الله عز وجل.

ذلك ما يتعلق بأصل الحكم في الأسرى، وأما كيفية معاملتهم أثناء الأسر فقد حثَّ الإسلام على البر بالأسير والاحسان إليه واعتبر ذلك من أعظم القربات التي تعد من صفات المؤمنين الصادقين، فقال عز وجل: « **ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا** »(١١٠)، ولا يجوز في الإسلام ضرب الأسير ولا تعذيبه ولا تجويعه ولا تعطيشه ولا إيذاؤه بشكل من الأشكال، حتى يرى الإمام فيهم رأيا(١١١).

ثانيا ــ الوقائع التاريخية:

تلك هي مبادئ الإسلام التي فرضها على الدعاة المجاهدين من أتباعه، وتلك هي غاية الجهاد. وتلك هي الصورة النظرية للقتال الإسلامي، ليس فيها أية رائحة لما افتراه أولئك الأفاكون، وقد أفضنا فيها لأنها هي الأساس في إبطال تلك المفتريات؛ لما أشرنا إليه من قبل أن أمة الإسلام هي أكثر الأمم التزاما بمبادئها وتعاليم دينها؛ لأن هذا الالتزام يعتبر عنصرا مهما داخلا في العقيدة نفسها، حتى قال العلماء المسلمون في تعريف الإيمان: إنه تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح(١١٢).

---

(١١٠) الانسان ــ الآيتان ٨،٩.

(١١١) انظر في معاملة الأسرى: محمد شديد ــ الجهاد في الإسلام ص ١٤٨ وما بعدها، ومحمد بن ناصر الجعوان ــ القتال في الإسلام ص ١٧٦ وما بعدها، وعبد الله غوشة ــ الجهاد طريق النصر ص ١٤٩ منشورات وزارة الأوقاف الأردنية.

(١١٢) انظر الطحاوي ــ العقيدة الطحاوية مع شرحها ص ٣٥٣ نشر المكتب =

وعلى أية حال فإن أي خروج عن تلك المبادئ، فالإسلام بريء منه، ولا يمثل مبادئ الإسلام وقيمه إلا الملتزمون بها، وأما الخارجون عليها المنحرفون عنها فإنهم لا يمثلون إلا أنفسهم وأهواءهم.

ومع ذلك فإن الصورة الواقعية للقتال الإسلامي لم تبتعد عن تلك المبادئ وإنما كانت قريبة جدا منها وتمثلها تمثيلا صادقا في معظم الأحيان.

هذا وإن تفصيل تلك الصورة يحتاج إلى مصنف كامل يبين فيه كيف انتشر الإسلام في أنحاء الدنيا(١١٣)، ولكننا سنشير فيما يلي إلى بعض المعالم والقرائن والوقائع التاريخية مما يكفي في الرد على الافتراء الذي سبق ذكره:

١ ــ منذ أن مكن الله للدعوة الإسلامية في الأرض التزم المسلمون بالمبدأ القرآني « **لا إكراه في الدين** » خير التزام، وخاصة في العهود الأولى من تاريخ الدولة الإسلامية، عهد الرسالة، وعهد الخلفاء الراشدين، وعهود الأمويين، وكثير من عهود العباسيين؛ فلم يتخذوا الإكراه طريقا لتحويل الكفار إلى مسلمين، وكان بإمكانهم لو أرادوا أن يستأصلوا كثيرا من الديانات وأهلها، ولكن التزامهم بالإسلام ومبادئه منعهم من ذلك، وكان دعاة الإسلام دائما كما وصفهم ربهم فقال عنهم: « **الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتووا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر** »(١١٤).

وإذا وجدت بعض المناسبات والظروف التي صير فيها إلى التشديد على

= الإسلامي الطبعة الرابعة ١٣٩١ هـ ، وملا علي القاري ــ شرح الفقه الأكبر « لأبي حنيفة » ص ٨٧،٨٨ طبع مصر ــ مصطفى البابي الحلبي ــ الطبعة الثانية سنة ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م، وأحمد بن إبراهيم الشرقي ــ شرح قصيدة ابن القيم ج ٢ ص ١٣٩ــ١٤١ ــ المكتب الإسلامي الطبعة الأولى سنة ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م.

(١١٣) من الكتب القيمة التي تناولت هذا الموضوع كتاب السير توماس أرنولد « الدعوة إلى الإسلام » بحث في تاريخ نشر العقيدة، وهو من المستشرقين القلائل الذين التزموا في أبحاثهم كثيرا من الموضوعية وعدالة القول وإن لم تخل أحيانا من التحيز وانحراف التأويل.

(١١٤) الحج ــ الآية ٤١.

بعض أهل الديانات الأخرى، فإنما كان ذلك لأسباب في أولئك المعاقبين، استدعت عقابهم والتشديد عليهم، وليس لأن المسلمين يريدون اضطهادهم، مثلما حدث ليهود بني قريظة، حيث كانوا من مواطني المدينة المنورة التي يحكمها الرسول، ويدينون لدولتها بالطاعة ويتمتعون بكل حقوق أهلها، وكانوا قد أعطوا الرسول عليه الصلاة والسلام عهدا ألا يخونوا ولا يعينوا على المسلمين أعداءهم، فغدروا وتآمروا على الدولة مع أعدائها في حالة الحرب، ونقضوا العهد. ومع ذلك فقد خيرهم الرسول عليه الصلاة والسلام فيمن يريدون أن يحكم عليهم، فاختاروا سعد بن معاذ، الذي كان حليفهم في الجاهلية، ورضوا بحكمه صراحة، فحكم بقتلهم، وامتدح الرسول موقفه وحكمه، وكان الحكم الذي حكم به معاذ هو الذي يتفق مع جريمة الخيانة العظمى التي وقعوا فيها، والذي تعمل به كل الدول(١١٥).

ومثل ذلك ما وقع للنصارى واليهود الذين ساعدوا الغزاة المغول، وتغطرسوا على المسلمين في ظل أولئك الغزاة المنتصرين، وكذلك نصارى الشرق الذين عملوا على ممالأة الغزاة الصليبيين. فهؤلاء وأمثالهم هم الذين تسببوا لأنفسهم بالمضايقة والحرمان من بعض مظاهر التسامح الذي نعم به أهل الذمة في ديار الإسلام في معظم الأوقات(١١٦).

وفيما عدا ذلك، فإذا حدث أن أُكره إنسان على الإسلام، فإن هذا كان يعتبر خروجا عن تعاليم الإسلام ومعصية من المعاصي، ومنكرا يجب على العلماء والدعاة القيام في وجه فاعليه وتغييره. مثال ذلك أنه لما هرب موسى بن ميمون، الذي كان قد تظاهر بالدخول في الإسلام في عهد الموحدين، إلى مصر وأعلن هناك أنه يهودي، اتهمه أحد فقهاء المسلمين بالارتداد عن

---

(١١٥) انظر: محمد شديد — الجهاد في الإسلام ص ١٤٩—١٥٠.

(١١٦) انظر: توماس أرنولد — الدعوة إلى الإسلام ص ٣٥١ — طبع مصر — مطبعة الشبكشي بالأزهر نشر مكتبة النهضة المصرية، وانظر في مظاهرة النصارى للمغول وفرحهم بقدومهم ونقضهم العهد: الذهبي — دول الإسلام ج ٢ ص ١٦٣ طبع مصر — الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الإسلام، وطالب بأن يوقع عليه أقصى عقوبة يقضي بها الشرع لهذا الجرم، وهي الإعدام، ولكن القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي وهو من أشهر قضاة المسلمين وكبير وزراء صلاح الدين ألغى هذا الحكم وأعلن بصفة جازمة أن رجلا قد أرغم على الدخول في الإسلام لا يصح شرعا أن يعد مسلما(١١٧).

وهكذا فإن الإكراه اعتبر دائما خروجا على الشرع ومعصية لله عز وجل، وكان العلماء والأئمة المسلمون ينكرون ذلك، ويحاولون تغييره إذا وقع(١١٨).

٢ ــ التزم المجاهدون المسلمون بالمبدأ المعبر عن الغايات التي ينتهي عندها القتال الإسلامي، وهو مبدأ تخيير العدو بين اعتناق الإسلام وبين الدخول في ذمة المسلمين، وبين الدخول في معركة مع المسلمين، بحيث إذا اختاروا الأولى

---

(١١٧) الدعوة إلى الاسلام ص ٣٥١.

(١١٨) انظر المرجع ذاته ص ٣٥٢، ويذكر فيها توماس أرنولد قصصا أخرى عن حوادث أكره فيها بعض أهل الكتاب على الإسلام ولكن العلماء يقومون فيصححون الأوضاع وينهون عن المنكر ويرفعون الظلم عن الناس المكرهين، من ذلك ما ذكر أنه كان تاجر أرمني موسر جالسا في حانوته ذات يوم، قدم عليه مسلم، وألحَّ عليه أن يدخل في الإسلام، وينبذ المسيحية، ولما أعرب التاجر عن نيته في أن يظل ثابتا على دينه وقدم له صدقة رغبة في أن يتخلص منه، أجابه بأنه لا يريد صدقته وإنما يريد منه أن يتحول إلى الإسلام، وأخيرا ضاق المسلم ذرعا بإصرار التاجر الأرمني على الرفض، فاختطف فجأة سيفا من يد أحد المشاهدين وضرب التاجر على رأسه ضربة قاضية ثم لاذ بالفرار، ولما سمع حاكم المدينة الخبر استشاط غضبا، وأمر بأن يقتفى أثر القاتل ويودع في السجن، ثم جيء بالمذنب بين يدي الحاكم، فطعنه بيده طعنة قضت عليه، وأمر بأن تلقى جثته نهبا للكلاب وقال: ماذا!! أبهذه الطريقة ينتشر دين محمد ﷺ؟!.

وتعقيبا على هذا الخبر فإنه لا بد من التنبه إلى أن فريقا من فقهاء المسلمين يقولون بالاقتصاص للذمي من المسلم القاتل، والذين قالوا بعدم إجراء القصاص بين المسلم والذمي قالوا بوجوب إنزال عقاب رادع في المسلم الذي يقتل ذميا فيما عدا القصاص، وعلى أية حال فإن تصرف الحاكم بإلقاء الجثة ليس تصرفا شرعيا لأن التمثيل بجثث القتلى من الكفار حرام، فكيف بجثث قتلى المسلمين؟!.

كانوا إخوانا للمجاهدين وليسوا بمجبرين على ذلك ، فإن اختاروا الثانية ورفضوا الإسلام وقبلوا عهد المسلمين وذمتهم ، وجب على المسلمين القبول منهم واعطاؤهم حقوقهم ومعاملتهم بالحسنى ، وحرم عليهم مقاتلتهم بعد ذلك ، فإن اختاروا الثالثة استعان المسلمون عليهم وقاتلوهم بأسلوب نظيف من جميع المظاهر الحيوانية التي تتصف بها حروب الكفرة في معظم الأحيان .

التزم المسلمون بهذا ولم يحدثنا تاريخ الجهاد الإسلامي أن الدعاة المسلمين خالفوا هذه القاعدة في تخيير العدو ، أو أنهم هاجموا أعداءهم من غير تخيير ، كما لم يحدثنا التاريخ عن أن المسلمين استمروا في الحرب وقتل الأعداء إذا قبلوا الدخول في ذمة المسلمين وإن لم يسلموا . وقد وجدنا في التاريخ الاسلامي مرة دخل فيها القائد المسلم بلاد الأعداء عنوة من غير تخيير فاشتكى أهل البلاد المفتوحة على ذلك القائد فصحح الأمر ، وأخرج القائد إلى معسكره الذي كان فيه قبل الحرب ثم خيرهم . فقد جاء في تاريخ الطبري : (لما أتى كتاب عمر بن عبد العزيز إلى واليه سليمان بن أبي السري قال أهل سمرقند لسليمان : إن قتيبة غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا ، وقد أظهر الله العدل والانصاف فائذن لنا فليغد منا وفد لأمير المؤمنين يشكون ظلامتنا ، فإن كان لنا حق اعطيناه ، فإن بنا إلى ذلك حاجة . فأذن لهم ، فوجهوا منهم قوما فقدموا على عمر بن عبد العزيز ، فكتب لهم عمر إلى سليمان بن أبي السري : إن أهل سمرقند قد شكوا إلي ظلما أصابهم وتحاملا من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم ، فإذا أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم ، فإن قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة . قال : فأجلس لهم سليمان جُميع بن حاضر القاضي الناجي فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء ، فيكون صلحا جديدا أو ظفرا عنوة ، فقال أهل سمرقند : بل نرضى بما كان ولا نجدد حربا وتراضوا بذلك)(١١٩) .

---

(١١٩) انظر : الطبري ــ تاريخ الرسل والملوك ج ٦ ص ٥٦٨،٥٦٧ ــ طبع مصر ــ دار المعارف

٣ ــ ومن القرائن التي تدل على أن انتشار الإسلام لم يكن راجعا إلى القهر والإكراه، وإنما كان ثمرة لأسباب وعوامل ذاتية كامنة فيه، وإلى التربية التي أخذ بها أتباعه الذين كانوا يحتكون بالناس ويتعاملون معهم فينجذب الناس إليهم، لما يجدون فيهم من الصدق والإخلاص وطيب النوايا، ومن القرائن الدالة على ذلك قلة الأعداد التي كانت تفتح البلاد، إذا ما قيست إلى أعداد أهالي تلك البلاد المفتوحة، فإن العقل لا يتصور أن عددا قليلا من هؤلاء الناس يثل عرش كسرى ويدك ملك قيصر ويرث هذه الامبراطوريات الضخمة في هذا العدد القليل من السنين بمجرد القوة والإكراه. ولا يعقل أن ثمانية آلاف جندي يفتحون اقليما واسعا كمصر وينشرون فيها دينهم ولغتهم وآدابهم وثقافتهم وقيمهم وعقيدتهم بالإكراه. ولكن ذلك يكون ممكنا إذا كان كل جندي من اولئك الثمانية آلاف داعية إلى الخير، ملتزما بمبادئ الحق، متحليا بمحاسن الأخلاق، تفيض روحه حبا للعباد ورغبة في إنقاذهم من الظلم والفساد. وليس بغير هذا يمكن تفسير تلك الفتوحات التي فتحت القلوب والعقول والنفوس قبل أن تفتح الأراضي والأقاليم. إن الإكراه يمكن اعتباره في الميزان لو كان الغزاة أكثر في أعدادهم من اولئك المكرهين، أو كان معهم من العدد والعتاد ما به يتفوقون على عدوهم ويعوضون به عن نقص أعدادهم.

ثم إن الإكراه يمكن أن يخضع الناس ظاهرا ولا يمكن أن يصهرهم بحيث يغير أخلاقهم وعاداتهم وآدابهم وقيمهم وموازينهم، وغير ذلك من عناصر وصفات الشخصية الانسانية التي لا يمكن أن يكون الإكراه عاملا في تكوينها.

ومن القرائن ذات الدلالة الواضحة على أن أهالي البلاد المفتوحة كانوا ينجذبون إلى الشخصيات الفاتحة وأخلاقهم وحسن معاملتهم، ما يحدثنا به التاريخ أن كثيرا من أهل البلاد الرومانية كانوا يتمنون عودة المسلمين إليهم بعد جلائهم؛ لما يلمسون فيهم من نبل الأهداف وحسن السيرة وإرادة الحق في الفترات القصيرة التي عاشروهم فيها، ومن أمثلة هذا أن أهل حمص فتحت بلدهم في أول الأمر وأخذ المسلمون منهم الجزية، ثم بدا لقادة المسلمين الجلاء

عن حمص ليتجمعوا لقتال الروم، فامر ابو عبيدة امراءه ان يردوا على اهل حمص ما كانوا أخذوه من الجزية منهم فردوها وقالوا لأهل البلاد: إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وإنكم قد اشترطتم أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك الآن، وقد رددنا ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط وما كان بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم، فكان جواب أهل هذه البلاد: ردكم الله علينا ونصركم عليهم فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا وأخذوا كل شيء، لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم(١٢٠).

٤ ــ ومن أعظم القرائن التاريخية دلالة على عكس ما افتراه المفترون من انتشار الإسلام بالإكراه، أن هذا الدين كان وما زال ينتشر في أوقات يكون فيها المسلمون هم المنهزمين في المعركة، والجولة لعدوهم عليهم وهم تحت القهر والإكراه، ومن ذلك: أنه لأول مرة في تاريخ البشرية تعتنق جيوش متوحشة همجية غازية دين من غزتهم وانتصرت عليهم ودمرت بلادهم وحضارتهم، كما حدث لجيوش التتار والمغول التي اعتنقت الإسلام، مع أنها كانت هي المنتصرة، يقول توماس أرنولد: (على الرغم من جميع المصاعب أذعن هؤلاء المغول والقبائل المتبربرة آخر الأمر لدين هذه الشعوب التي ساموها الخسف، وجعلوها في مواطئ أقدامهم ...)(١٢١)، فهل كان للسيف سلطان على قلوب هؤلاء التتار في الوقت الذي كان بأيديهم وكانت أيدي المسلمين خالية الوفاض من كل قوة؟!.

هذا على المستوى الجماعي، وأما على المستوى الفردي فكثيرا ما أثّر أفراد مسلمون في مواقع الضعف المادي، ولا حول ولا قوة لهم، على اولئك الأقوياء الذين لهم التسلط والقدرة، وذلك بالحجة والاقناع والقدوة الصالحة والصدق. من ذلك:

(أن المسلم الأسير كان يغتنم الفرص في المناسبات لدعوة آسريه أو إخوانه في

---

(١٢٠) انظر: القاضي أبو يوسف ــ الخراج ص ١٣٨ــ١٣٩ محمد رشيد رضا ــ تفسير المنار ج ١٠ ص ٣٤٩ طبع سنة ١٣٤٩ هـ.

(١٢١) الدعوة إلى الإسلام ص ١٩٦ وانظر أيضا: عبد الله التل ــ جذور البلاء ــ القسم الأول ص ٢٦١.

الأسر إلى دينه. وقد تسرب الإسلام إلى أوروبا أول الأمر بفضل ما قام به فقيه مسلم، سيق أسيرا، ربما في إحدى الحروب التي نشبت بين الدولة البيزنطية وجيرانها المسلمين، وجيء به إلى بلاد بتشنج في مستهل القرن الحادي عشر، وقد بسط بين يدي كثير منهم تعاليم الإسلام، فاعتقدوه في إخلاص حتى انه أخذ في الانتشار بين هذا الشعب ... ولم تأت نهاية القرن الحادي عشر حتى كان الشعب بأسره قد اعتقدوا الإسلام وكان من بينهم مسلمون تعلموا الفقه والتوحيد.

وفي عهد الامبراطور جهانجير (١٦٠٥ـــ١٦٢٨ م) كان هنالك عالم سنّي من علماء التوحيد يدعى الشيخ أحمد مجدد، وقد تميز بقدرته على مجادلة الشيعة في عقائدهم بنوع خاص، ولما كان هؤلاء مقربين إلى البلاط في ذلك الحين نجحوا في إيداعه السجن بتهمة تافهة، وفي خلال السنتين اللتين قضاهما في السجن أدخل في الإسلام عدة مئات من عبدة الأوثان الذين كانوا يرافقونه في هذا السجن نفسه ...)[١٢٢].

٥ ـــ وفي هذه الأيام، حيث لا دولة للإسلام، ولا قوة للمسلمين، يدخل في الإسلام آلاف الناس في افريقيا وآسيا وأمريكا وأوروبا واليابان وغيرها، بالرغم من ضعف المسلمين وضعف التزامهم بدينهم. والذين يدخلون فيه يعلمون أنهم سيحاربون وسيصيبهم صنوف من الأذى والمضايقات. ومع ذلك كله وبالرغم من هذه العقبات والمعوقات لم تنقطع الروافد التي تمد العالم الإسلامي بأعداد جديدة وكبيرة من المسلمين الجدد من مختلف أنحاء الدنيا.

والواقع أن أقطارا شاسعة من بلاد المسلمين دخل أهلها في الإسلام من غير حرب ولا قتال وإنما عن طرق سلمية كالتجارة ونحوها[١٢٣].

يقول العقاد: (إن هذا الشأن العظيم، شأن العقيدة الشاملة التي تجعل المسلم وحدة كاملة، لا يتجلى واضحا قويا كما يتجلى من عمل الفرد في نشر العقيدة الإسلامية، فقد أسلم عشرات الملايين في الصحاري الافريقية على

(١٢٢) توماس أرنولد ـــ الدعوة إلى الإسلام ص ٣٤٤.

(١٢٣) انظر عبد الله التل ـــ جذور البلاء ـــ القسم الأول ص ٢٦١.

يدي تاجر فرد، أو صاحب طريقة متفرد في خلوته، لا يعتصم بسلطان هيكل ولا بمراسيم كهانة. وتصنع هنا قدرة الفرد الواحد ما لم تصنعه جموع التبشير ولا سطوة الفتح والغلبة؛ فجملة من أسلموا في البلاد التي انتصرت فيها جيوش الدولة الإسلامية هم الآن أربعون أو خمسون مليونا بين الهلال الخصيب وشواطئ البحرين الأبيض والأحمر. فأما الذين أسلموا بالقدوة الفردية الصالحة فهم فوق المائتين من الملايين، أو هم كل من أسلم في الهند والصين وجزائر جاوة وصحارى افريقية وشواطئها إلا القليل الذي لا يزيد في بداءته على عشرات الألوف)(١٢٤).

٦ ـــ إن الفترات القصيرة من الزمن التي استغرقها انتشار الإسلام في معظم بقاع الأرض، وبقاء هذا الانشار في اطراد مستمر، واستقرار الشعوب الإسلامية على دينها وتمسكها به بالرغم من زوال الإكراه ومظاهره على فرض وجوده أولا لهو دليل واضح لذوي الألباب على بطلان دعوى أولئك المفترين في انتشار الإسلام بالسيف، فهاهم أسيادهم ودولهم من المستعمرين كم استعبدوا بالقوة بلادا وأقواما ظل أهلها يقاومون ويثورون حتى استطاعوا التخلص منهم ومن ظلمهم. إن الإكراه لا يصهر الشعوب ولا يقنعها؛ولذلك لم يثبت ولن يثبت للاستعمار قدم في قطر من الأقطار، وستظل الشعوب المستضعفة تقاوم حتى التحرير؛ وما ذاك إلا لأن حروب الكفرة، ما كانت يوما من الأيام من أجل هدف نبيل أو غاية معقولة.

وأما جهاد المسلمين فلم يكن فيه أية سمة من سمات تلك الحروب الاستعمارية، ولذلك فإنهم لم يدخلوا بقعة من بقاع الأرض إلا تمسك بهم أهلها وانتشر بينهم دين الله. وها هي إلى اليوم بلاد كثيرة من أقطار الدنيا يعتز أهلها بالإسلام، ويتمنون رجوع الحياة الاسلامية لولا ما يمكر بهم من أعداء الإسلام وسفرائهم من الحكام. وتجد هؤلاء الناس لا يذكرون قادة المسلمين ممن كان هداهم على أيديهم إلا بالفخر والاعتزاز وحمد الله وشكره، فهل للسيف

---

(١٢٤) عباس محمود العقاد ـــ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٢٥.

والجبروت أن يصنع مثل هذا الصنيع؟! ولماذا لم يستطع المستعمرون الكفرة وقد حازوا من القوة ما لم يسبق لغيرهم أن يصهروا شعوب البلدان التي استعمروها وأن يملأوا قلوبهم بتقديرهم واحترامهم؟ أو على الأقل أن يمنعوا تمردهم وثوراتهم؟!.

ولا بد أن ننبه القارئ في هذا المقام إلى أنه لا يوجد بلد دخله المسلمون ونشروا فيه الإسلام ثم أخرجهم أهله الذين يعيشون مع المسلمين، ويرون أثر الإسلام فيهم وعدله معهم. وإنما أُخرج المسلمون من بعض البلاد التي دخلوها كالأندلس من أناس من الأسبان لم يذوقوا طعم الحكم الإسلامي وعدالته، فاتخذوا لهم معاقل خارج الحدود الاسلامية ظلوا فيها يخططون ويتحينون الفرص، حتى كان ما كان من تفرق المسلمين في تلك البلاد وهجرانهم للأخلاق الإسلامية، مما شجع اولئك على القيام بضربتهم، والاستيلاء على البلاد وقتل أهلها وإخراجهم منها. وفي غير هذا المثال لا تكاد تجد أمة اعتنقت الإسلام فقام الأبناء والأحفاد بالثورة على المسلمين وإخراجهم من بلادهم. بل إن كل بلد دخلها الإسلام اعتز أهلها بإسلامهم ونظروا إلى أجدادهم وأوائل المسلمين نظرة الحب والاحترام. وحتى في العصر الحاضر، فإنك لو تقصيت واستقرأت الواقع لوجدت أن أية دعوة أو فكرة تقوم على مناهضة دعوة الإسلام لم تنبت في أرض الإسلام، ولا انبثقت من داخل الأمة الإسلامية، وإنما تجدها جميعا وبدون استثناء مستوردة، إما من الشرق الكافر أو الغرب الكافر، الذين يصدرون إلينا دعوات منكرة يربطون بها بعض الناس في داخل الأمة الإسلامية.

وهذا أمر خاص بدعوة الإسلام؛ فإن تاريخ الدعوات والحروب الاستعمارية تدلك على أنه ما من أمة ابتليت بغزو الكفار إلا وثارت ضدهم ولو بعد حين ورفضت دعواتهم ومبادئهم.

٧ ــ إن خير ما يوضح سيرة قوم في قتالهم مع عدوهم هو سلوكهم معه عند انتصارهم عليه، حيث يكون لهم القدرة والسلطان: فمن كان عبدا لهواه طغى

واستكبر في الأرض وعاث فيها فسادا وأهلك الحرث والنسل، وكان شر مثال لابن آدم في الأرض التي استخلف الانسان فيها، ومن كان منضبطا بضوابط عادلة وبخاصة إذا كان ملتزما مع ربه بهذه الضوابط، شكر ربه على النصر وكان عادلا ومعتدلا، وأشرك بالخير من سلط عليهم، ولم يفسد في الأرض ولم يتجبر على العباد.

ولقد كانت سيرة المجاهدين المسلمين الفاتحين معبرة عن التزام عظيم بتعاليم الإسلام ووصايا النبي عليه الصلاة والسلام، حتى جاءت في أطهر صورة يمكن أن تتصف بها النزاعات الانسانية. وفيما يلي نثبت بعض الصفحات البيضاء الناصعة التي سطرها المسلمون في تاريخ الانسانية، لنقارنها بعد ذلك ببعض الصفحات السود التي لوث بها الكفرة الحاقدون تاريخ الإنسان.

صور من فتوحات المسلمين:

أ ــ فتح مكة:

عندما منَّ الله على الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، بالعودة إلى موطنهم مكة المشرفة، ونصرهم على عدوهم نصرا مؤزرا، وكانت قريش قبل قيام دولة الإسلام قد آذت الرسول ومن معه أذى كثيرا، قولا وعملا ومقاطعة وهجرا واستهزاءً وتعذيبا وغير ذلك. ولو عاملهم الرسول عليه الصلاة والسلام بعشر معشار ما فعلوه به وبأصحابه لأعمل فيهم السيف، ولم يبق منهم أحداً سوى النساء والأطفال، ولأخذ أموالهم واسترق نساءهم وأطفالهم. لكنه لم يفعل شيئا من ذلك فلم ينتقم وقد أمكنه الله منهم بل كان رحمة مهداة إليهم، كما هو لبقية العباد. وكذلك كبح جماح من ثارت نفسه من أصحابه، تريد الانتقام والتقتيل، ومنعهم من ذلك، وأمرهم أن لايقتلوا من لا يقاتلهم، ولا يعتدوا على أحد حتى يعتدي عليهم، ومما يروى في السيرة: (أنه لما مر سعد بن عبادة رضي الله عنه، وكان معه راية الأنصار، على أبي سفيان وهو واقف بمضيق الوادي، قال أبو سفيان: من هذه؟ قال: هؤلاء الأنصار يا أبا سفيان، اليوم

يوم الملحمة: أي الحرب والقتال، اليوم تستحل الحرمة، وفي لفظ تستحل الكعبة، اليوم أذل الله قريشا. فلما أقبل رسول الله ﷺ ومر بأبي سفيان، وحاذاه أبو سفيان، ناداه: يا رسول الله أمرت بقتل قومك، فإنه زعم سعد ومن معه حين مر بنا أنه قاتلنا، فقال: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشا، أنشدك الله في قومك فأنت أبر الناس وأرحمهم وأوصلهم، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا سفيان، كذب سعد، اليوم يوم المرحمة، اليوم أعز الله فيه قريشا، اليوم يعظم الله فيه الكعبة، وأرسل عليا إلى سعد، وأمره أن ينزع اللواء منه، ويدفعه إلى قيس رضي الله عنه ....)(١٢٥).

ولما خرج رسول الله ﷺ من الكعبة وضع يده على عضادتي الباب وقال لقريش: يا معشر قريش: ماذا تقولون؟ ماذا تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرا، قال رسول الله ﷺ: أقول كما قال أخي يوسف: « **لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** »(١٢٦)، اذهبوا فأنتم الطلقاء(١٢٧) ... فخرجوا فكأنما نشروا من القبور، فدخلوا في الإسلام)(١٢٨).

ب ــ فتح القدس:

جاء في كتاب يوناني مخطوط وصف لتسلم الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبيت المقدس من الروم المنهزمين: (لما اشتد حصار المسلمين لبيت المقدس سنة ٦٣٦ م، أطل البطريرك صفرونيوس على المحاصِرين من فوق أسوار المدينة وقال لهم: إنا نريد أن نسلم لكم، لكن بشرط أن يكون التسليم لأميركم، فقدموا له أمير الجيش، فقال: لا إنما نريد الأمير الأكبر، نريد أمير المؤمنين، فكتب أمير الجيش إلى عمر بن الخطاب يقول: إن

---

(١٢٥) انظر: علي بن برهان الدين الحلبي ــ السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٢ ــ طبع مصر ــ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ــ الطبعة الأولى سنة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م.

(١٢٦) يوسف ــ الآية ٩٢.

(١٢٧) أي الذين أطلقوا فلم يسترقوا ولم يؤسروا، والطليق في الأصل الأسير إذا أطلق.

(١٢٨) الحلبي ــ السيرة الحلبية ج ٣ ص ٤٩.

القوم يريدون تسليم المدينة، لكنهم يشترطون أن يكون ذلك ليدك شخصيا، فخرج عمر من المدينة قاصدا بيت المقدس، ومعه راحلة واحدة وغلام، فلما صار في ظاهر المدينة، قال لغلامه، نحن اثنان والراحلة واحدة، فإن ركبت أنا ومشيت أنت ظلمتك، وإن ركبت أنت ومشيت أنا ظلمتني، وإن ركبنا الاثنان قصمنا ظهرها، فلنقتسم الطريق مثالثة. وأخذ عمر يركب مرحلة ويقود مرحلة، وتمشي الراحلة أمامهما متخففة من حمل أحد مرحلة. وهكذا استمر عمر يقتسم الطريق مثالثة بين نفسه وبين غلامه وبين راحلته حتى بلغ جبلا مشرفا على القدس، صادف أنه كانت ببلوغه قد انتهت مرحلة ركوبه، فكبر من فوق الراحلة، ولما فرغ من تكبيره قال لغلامه: دورك اركب، فقال الغلام: يا أمير المؤمنين لا تنزلن ولا أركبن، فإنا مقبلون على مدينة فيها مدنية وحضارة، وفيها الخيول المطهمة المسرجة والعربات المذهبة، فإن دخلنا على هذه الصورة هزأوا بنا وسخروا من أمرنا، وقد يؤثر ذلك على نصرنا، فقال عمر: دورك، فوالله لأنزلن ولتركبن، ونزل عمر وركب الغلام الراحلة وأخذ بمقودها، فلما بلغ سور المدينة وجد نصاراها في استقباله خارج بابها المسمى بباب دمشق وعلى رأسهم البطريرك صفرونيوس، فلما رأوه آخذاً بمقود الراحلة وغلامه فوق رحلها، أكبروه وخروا له ساجدين! فأشاح عليهم الغلام بعصاه من فوق رحلها وصاح فيهم: ويحكم ارفعوا رؤوسكم فإنه لا ينبغي السجود إلا لله. فلما رفعوا رؤسهم انتحى البطريرك صفرونيوس ناحية وبكى. فتأثر عمر وأقبل عليه يطيب خاطره ويواسيه قائلا: هوّن عليك فالدنيا دواليك يوم لك ويوم عليك، فقال صفرونيوس: أظننتني لضياع الملك بكيت؟ والله ما لهذا بكيت، وإنما بكيت لما أيقنت أن دولتكم على الدهر باقية، ترق ولا تنقطع ... فدولة الظلم ساعة ودولة العدل إلى قيام الساعة، وكنت حسبتها دولة فاتحين تمر ثم تنقرض مع السنين.

ثم خطب عمر في تلك الجموع الحاشدة مستهلا خطبته بقوله: يا أهل إيلياء، لكم ما لنا، وعليكم ما علينا، ثم دعاه البطريرك صفرنيوس لتفقد كنيسة القيامة، فلبى دعوته وأدركته الصلاة وهو فيها، فالتفت إلى البطريرك

وقال له، أين أصلي؟ فقال: مكانك صل، فقال: ما كان لعمر أن يصلي في كنيسة القيامة، فيأتي المسلمون من بعدي ويقولون: هنا صلى عمر، ويبنون عليه مسجدا، وابتعد عنه رمية حجر وفرش عباءته وصلى. وجاء المسلمون من بعده وبنوا على مصلاه مسجدا ...)(١٢٩).

وبعد ذلك أعطى الخليفة عمر لأهل القدس وثيقة أمان عرفت بالعهدة العمرية، وهي ما تزال محفوظة في بطريركية الروم الأرثوذكس في القدس الشريف، وهذا نصها:

(بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، سقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صلبهم ولا شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود(١٣٠). وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبانهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم فمن شاء منهم قعد، وعليهم مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصدوا حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا اعطوا الذي عليهم من الجزية ـــ كتب سنة ١٥ للهجرة ـــ شهد على ذلك خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان)(١٣١).

---

(١٢٩) انظر: عبد الله التل: خطر اليهودية العالمية على الإسلام والنصرانية ص ١٢٧ــ١٣٠.

(١٣٠) وكان هذا بناءاً على طلب صفرونيوس البطريرك.

(١٣١) المرجع ذاته ص ١٣٠،١٣١.

ذلك هو اسلوب الفاتحين من عباد الرحمن الذين تربوا على مائدة القرآن، على أيدي المصطفى عليه الصلاة والسلام، عندما نصرهم الله عز وجل وفتح عليهم القدس، اسلوب يفيض بالرحمة والشفقة على عباد الله، ومعاملة تليق بإنسانية الإنسان وكرامته. فقارن هذا بما فعله الصليبيون عندما دخلوا بيت المقدس سنة ١٠٩٩ م، حيث أراقوا فيه الدماء وقاموا بمذبحة شنيعة قتلوا فيها أكثر من سبعين ألفا، حتى خاضت خيولهم في بحر من الدماء، كما ذكر جودفري الذي انتخب فيما بعد ملكا على بيت المقدس، وذلك في رسالته إلى البابا التي يهنئه فيها بالظفر! وكانوا قبل هذه المذبحة بأقل من عام قد خرجوا من مذبحة أخرى قاموا بها في أنطاكية حيث مثلوا بأهلها أشنع تمثيل، وقتلوا منهم عشرة آلاف[١٣٢] وسيأتي تفصيل لذلك.

جـ ــ فتح الأندلس:

وهذه صورة ثالثة من معاملة المسلمين لأهل البلاد المفتوحة، وهي معاملتهم لأهل الأندلس من نصارى وغيرهم، وأكتفي في توضيح معالم هذه الصورة بنقل ما كتبه أحد المستشرقين المعتدلين، وهو السير توماس . و . أرنولد؛ فقد قال في مبدأ كلامه عن انتشار الإسلام بين مسيحي اسبانيا:

(أدخل العرب الظافرون الإسلام في إسبانيا عام ٧١١ م، وفي سنة ١٥٠٢ م أصدر فرديناند وإيزابيلا مرسوما يقضي بإلغاء شعائر الدين الإسلامي في جميع أرجاء البلاد، ولقد كتبت إسبانيا الإسلامية في القرون التي تقع بين هذين التاريخين صفحة من أنقى الصفحات وأسطعها في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، وقد امتد تأثيرها من ولاية بروفانس إلى الممالك الأوربية الأخرى، وأتت بنهضة جديدة في الشعر والثقافة ....)[١٣٣].

---

(١٣٢) انظر: حسن إبراهيم حسن ــ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ج ٤ ص ٢٤٧ طبع القاهرة ١٩٦٧ م مطبعة السنة المحمدية، وانظر عبد الله التل ــ جذور البلاء ــ القسم الأول ص ٢٦٠.

(١٣٣) الدعوة إلى الإسلام ص ١١٦.

ويقول في موضع آخر: (أما عن حمل الناس على الدخول في الإسلام أو اضطهادهم بأية وسيلة من وسائل الاضطهاد في الأيام الأولى التي أعقبت الفتح العربي، فإننا لا نسمع عن ذلك شيئا. وفي الحق أن سياسة التسامح الديني التي أظهرها هؤلاء الفاتحون نحو الديانة المسيحية، كان لها أكبر الأثر في تسهيل استيلائهم على هذه البلاد. وإن الشكوى الوحيدة التي شكا منها المسيحيون هي معاملة حكامهم الجدد لهم معاملة تختلف عن معاملة رعاياهم من غير المسيحين؛ وذلك لأنه قد فرض عليهم أداء جزية الرؤوس المعتادة، وهي ثمانية وأربعون درهما عن الأغنياء وأربع وعشرون عن الطبقة الوسطى واثنا عشر درهما عن العمال، لاعفائهم من الخدمة العسكرية. على أن هذه الجزية لم تفرض إلا على القادرين من الرجال، على حين اعفي منها النساء والأطفال والرهبان والمقعدون والعميان والمرضى والمساكين والأرقاء. هذا إلى أن جمع هذه الضرائب قد قام به الموظفون المسيحيون أنفسهم مما خفف وطأتها على الناس[١٣٤].

على أنه في الأحوال التي كان يعتدي فيها المسيحيون على الدين الإسلامي كانوا يحاكمون أمام قضاتهم وفقا للقوانين المعمول بها في بلادهم ولم يتعرض لهم المسلمون في إقامة شعائرهم الدينية. ولا غرو، فقد كانوا يقدمون القرابين بين دق الناقوس وإحراق البخور وغير ذلك من الطقوس الدينية الكاثوليكية، وكذا ترنيم المزامير وإلقاء المواعظ والاحتفال بالأعياد المسيحية على النحو الذي كانوا يحتفلون به قبل الفتح.

كذلك نقرأ عن بناء عدة أديار جديدة بالاضافة إلى الأديار الكثيرة التي أقام بها الرهبان والراهبات، الذين عاشوا في أمن وطمأنينة، لا يتعرض لهم حكام المسلمين بسوء. وكان الرهبان يستطيعون الظهور على ملأ من الناس في وشاحهم الصوفي وفق نظامهم الكنسي، ولم يكن ثمة ما يدعو القسيس إلى

(١٣٤) لو أمعن النظر منصف لوجد أن تكاليف أهل الذمة المالية أخف وأسهل بكثير من تكاليف المسلمين الذين يجب عليهم الزكاة والمشاركة في الجهاد ومسئوليات أخرى.

اخفاء شارته الدينية، وفي الوقت نفسه لم تحل المناصب الدينية دون تقلد المسيحيين المناصب العالية في البلاط، أو اندماجهم في سلك الرهبنة أو انتظامهم في جيش المسلمين.

ومن الثابت لدينا أن هؤلاء المسيحيين الذين مالوا إلى الصلح ورضوا عن طيب خاطر بحرمانهم ما كانوا يتمتعون به من نفوذ سياسي وسلطة، لم يكن ثمة ما يدعوهم إلى الشكوى ....)(١٣٥).

ثم يعرض بعد ذلك لبيان أثر هذه المعاملة الإسلامية في نفوس النصارى وغيرهم، مما دفع كثيرا منهم، ومن زعمائهم الدينيين إلى اعتناق الإسلام، والذين لم يعتنقوا الإسلام انخرطوا في المسلمين وتأثروا بعباداتهم وأسمائهم وأحكامهم ولغتهم، وتركوا معظم ما كانوا عليه من العادات والتقاليد واللغة والأدب.

صور من فتوحات الكفرة:

نذكر هنا بعض الصور التاريخية لفتوحات الكفار، لتكون بجانب تلك الصور المشرقة، ليرى القارئ مدى الفرق بين أولئك الذين يقاتلون في سبيل الله وبين أولئك الذين يقاتلون في سبيل الطاغوت:

أ ــ فتح التتار لبغداد:

يقول ابن كثير في البداية والنهاية، فيما رواه من أحداث عام ٦٥٦ هـ، عما فعله التتار في بغداد:

(ومالوا على البلد، فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان. ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أياما لا يظهرون. وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب، فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة، فيقتلونهم

(١٣٥) الدعوة إلى الإسلام ص ١١٩، ١٢٠.

بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة ــ فإنا لله وإنا إليه راجعون ــ كذلك في المساجد والجوامع والربط.

ولم ينج أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم(١٣٦)، وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي، وطائفة من التجار أخذوا أمانا بذلوا عليه أموالا جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم. وعادت بغداد بعدما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب، ليس فيها إلا القليل من الناس وهم في خوف وجوع وذلة وقلة .....

(وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الوقعة: فقيل ثمانمائة ألف، وقيل ألف ألف، وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نفس(١٣٧) ــ فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ــ وكان دخولهم إلى بغداد في أواخر المحرم، وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يوما ... وكان قتل الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين يوم الأربعاء رابع عشر صفر، وعفي قبره، وكان عمره يومئذ ستا وأربعين سنة وأربعة أشهر، ومدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام، وقتل معه ولده الأكبر أبو العباس أحمد، وله خمس وعشرون سنة، ثم قتل ولده الأوسط أبو الفضل عبد الرحمن وله ثلاث وعشرون سنة .... وقتل أستاذ دار الخلافة الشيخ محيي الدين يوسف بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي .... وكان الرجل يستدعى به من دار الخلافة من بني العباس، فيخرج بأبنائه ونسائه، فيذهب إلى مقبرة

---

(١٣٦) (ذلك أن اليهود والنصارى ــ من أهل الذمة ــ كانوا ممن كاتب التتار لغزو عاصمة الخلافة والقضاء على الإسلام والمسلمين، وشاركوا مشاركة فعلية في هذه الكارثة، واستقبلوا التتار الوثنيين بالترحاب، ليقضوا لهم على المسلمين الذي أعطوهم ذمتهم ووفروا لهم الأمن والحماية) ــ انظر: سيد قطب ــ في ظلال القرآن ــ المجلد الرابع ص ١٥١ الحاشية طبع بيروت ١٩٦٧ م.

(١٣٧) يذكر المؤرخ المسلم الحافظ شمس الدين الذهبي من حوادث ٦٥٦ هـ أن قتلى التتار في بغداد بلغت ألف ألف وثمانمائة ألف وزيادة ــ انظر كتابه دول الإسلام ج ٢ ص ١٦٠.

الخلال تجاه المنظرة، فيذبح كما تذبح الشاة، ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه ... وقتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن، وتعطلت المساجد والجماعات والجمع مدة شهور ببغداد ......

(ولما انقضى الأمر المقدر، وانقضت الأربعون يوما، بقيت بغداد خاوية على عروشها، ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنهم التلول، وقد سقط عليهم المطر، فتغيرت صورهم وانتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد، حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون فإنا لله وإنا إليه راجعون ......

(ولما نودي ببغداد بالإمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضا، فلا يعرف الوالد ولده، ولا الأخ أخاه وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى ...)[١٣٨].

ب ــ فتح النصارى للأندلس:

تقدمت صورة فتح المسلمين للأندلس وما فيها من الرحمة والاحسان والحضارة والانسانية، وأما الصورة المقابلة من صنيع الكفار في تلك البلاد من أرض الله، فهي تلك التي رسمها أولئك المتعصبون من الاسبان عندما عادت الأندلس إلى أيديهم؛ نتيجة اختلاف المسلمين وانصرافهم عن دينهم: إن كتب التاريخ تحدثنا أن المسلمين واليهود في إسبانيا لقوا أشد العذاب والتنكيل من محاكم التفتيش التي كانت تأمر بتعميد المسلمين كرها ثم بحرق كثير من المعمّدين كرها. وتحدثنا أيضا أن كردينال طليطلة التقيّ الذي كان رئيسا لمحاكم التفتيش نصح أتباعه بقطع رؤوس جميع من لم يتنصر من العرب رجالا ونساءً وشيوخا وولدانا، كما تحدثنا أن شارلمان أراد أن يستأصل شأفة الإسلام تأييدا لهيبة الكنيسة، وأن يسحق دولة الأندلس احتفاظا بكبرياء الفتح والظفر. وتنقل لنا كتب التاريخ أسوأ صورة عن نقض النصارى لمعاهداتهم ومواثيقهم عندما عقد مسلمو غرناطة معاهدة التسليم والأمان مع الملكين الكاثولكيين

---

(١٣٨) انظر: سيد قطب ــ في ظلال القرآن ــ المجلد الرابع ص ١٥١، ١٥٢.

فرديناند وإيزابيلا اللذيْن نكثا بالعهود والمواثيق، فكبد هذا المسلمين فقدان ما يقارب ثلاثة ملايين منهم، واليهود نحو مليون منهم، أعمَلَ الكاثوليك في رقابهم السيف تنكيلا وانتقاما(١٣٩).

ولعل مما يجلّي صورة هذه المأساة الانسانية التي جرت في الأندلس على أيدي صليبييها أن ننقل بعض العبارات التاريخية الوصفية في هذا الشأن: ففي عام ٨٩٧ هـ الموافق١٤٩١ م وقعت معاهدة التسليم بين حاكم غرناطة المتخاذل وبين ملكي قشتالة، وقد تضمنت هذه المعاهدة شروطا كثيرة تعهد فيها الملكان الكاثوليكيان بأمور كثيرة للمسلمين، وجاء في المعاهدة: (أن ملكي قشتالة يؤكدان ويضمنان بدينهما وشرفهما الملكي القيام بكل ما يحتويه هذا العهد من النصوص، ويوقعانه باسميهما ويمهرانه بخاتميهما »(١٤٠)، ثم كرر هذا التعهد بعد ذلك بسنة « بتوكيد جديد يأمر فيه الملكان ولدهما الأمير وسائر عظماء المملكة بالمحافظة على محتويات هذا العهد، وألا يعمل ضده شيء أو ينقض منه شيء الآن وإلى الأبد، وأنهما يؤكدان ويقسمان بدينهما وشرفهما الملكي بأن يحافظا ويأمرا بالمحافظة على كل ما يحتويه بندا بندا إلى الأبد، وقد ذيل هذا التوكيد بتوقيع الملكين وتوقيع ولدهما وجمع كبير من الأمراء والأحبار والأشراف والعظماء)(١٤١).

(بعد سنوات قليلة بدأ النقض لكل ما جاء في معاهدة تسليم غرناطة عن قصد مسبق وتدبير مخطط، تعاونهما في ذلك السلطات الكنسية وكافة المسئولين. اتخذ هذا الترتيب تدرجا، ولم تكن أولى خطواته مستساغة أو خالية من القسوة أو بعيدة عن الأهوال أو منافية للتوحش ......

---

(١٣٩) وهبة الزحيلي ــ انظر: آثار الحرب في الفقه الإسلامي ص ٥٠ ــ المطبعة العلمية بدمشق ــ الطبعة الثانية.

(١٤٠) انظر: عبد الرحمن علي الحجي ــ التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ص ٥٦٩ ــ الطبعة الأولى ١٩٧٦ م.

(١٤١) المرجع ذاته ص ٥٧٠.

(بقيت أعداد كبيرة ـــ ملايين ـــ من المسلمين بعد سقوط غرناطة لم تجز إلى العدوة المغربية ... بل فضلت الاقامة في أماكنها، فأثار ذلك حفيظة السلطات القشتالية، فنقضت الشروط، ولم تمض سبع سنوات أو دونها على سقوط غرناطة حتى أجبرت هذه السلطات المسلمين على التنصر، يقول المقرّي التلمساني في أزهار الرياض في أخبار عياض: فلما رأى الطاغية أن الناس قد تركوا الجواز، وعزموا على الاستيطان والمقام في الوطن، أخذ في نقض الشروط التي اشترط عليه المسلمون أول مرة ولم يزل ينقضها فصلا فصلا، إلى أن نقض جميعها، وزالت حرمة المسلمين، وأدركهم الهوان والذلة، واستطال عليهم النصارى وفرضت عليهم المغارم الثقيلة، وقطع عنهم الأذان في الصوامع وأمرهم بالخروج من غرناطة إلى الأرباض والقرى، فخرجوا أذلة صاغرين ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصر وأكرههم عليه وذلك سنة ٩٠٤ هـ، فدخلوا فيه كرها، وصارت الأندلس كلها داركفر ولم يبق من يجهر بكلمة التوحيد والأذان، وجعلت في المساجد والمآذن النواقيس والصلبان، بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، فإنا لله وإنا إليه راجعون، لا راد لما قضاه الله الملك الديّان ... وذلك أنهم أكرهوا بالقتل إن لم يقع منهم النطق بما يقتضي في الظاهر الكفر ولم يقبل منهم الأسر ...)(١٤٢).

(إن المجتمع الذي أقامه الإسلام في الأندلس وبه كان وجوده، رعى الحقوق حتى لغير المسلمين، وجدوا فيه الظل الوارف والعش الأمين والكنف اللين، يوم كان لا يتوفر ذلك لأهلها في مجتمعات تدين بما يدينون، فلقد منع فقهاء قرطبة المنصور بن أبي عامر ـــ حين استشارهم ـــ من أرض موقوفة على بعض كنائس أهل الذمة، أراد شراءها.

(لكنه يوم ذهبت دولة الإسلام لم ترد السلطات الغالبة للمغلوب بنفس صاعه ولا نصيفه أو جزء منه، أو به شبيه .....

---

(١٤٢) عبد الرحمن الحجي ـ التاريخ الأندلسي ص ٥٧٠ـ٥٧١.

(اعتمدت سياسة اسبانيا النصرانية مختلف الأساليب لافناء الإسلام وإبادة أهله في جزيرة الأندلس. فألفت عمليات الابادة ورفض المصالحة والاستسلام، بل آثرت تدمير المدينة الأندلسية، التي تقع في حوزتها وتقتيل أهلها كما ارتضت إحراق المساجد، أو إحالتها إلى كنائس، وقد يتم ذلك كله مع وجود معاهدات مؤكدة ومحلوف عليها .... وبلغ الأمر بعد سقوط بلنسية أن منع المسلمون من استعمال مقابرهم ...)(١٤٣).

ج ــ فتح الصليبيين لبيت المقدس ومدن أخرى من الديار المقدسة:

يقول غوستاف لوبون: (يدل سلوك الصليبيين في جميع المعارك على أنهم كانوا من أشد الوحوش حماقة، فكانوا لا يفرقون بين الحلفاء والأعداء والمحاربين والنساء والشيوخ والأطفال، وكانوا يقتلون وينهبون من يصادفونه منهم، ويخبطون في ذلك خبط عشواء، ونرى في كل صفحة من الكتب التي ألفها مؤرخو النصارى في ذلك الزمن براهين على توحش الصليبيين، ويكفي لبيان ذلك أن ننقل الخبر الآتي الذي رواه الشاهد الراهب روبرت عن سلوك الصليبيين في مدينة مارات للدلالة على سياسة الصليبيين الحربية، قال الراهب التقي روبرت:

(كان قومنا الصليبيون يجوبون كاللبؤات التي خطفت صغارها، الشوارع والميادين وسطوح البيوت، ليرووا غليلهم من التقتيل، وكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ، ويقطعونهم إربا إربا، وكانوا لايستبقون إنسانا وكانوا يشنقون أناسا كثيرين بحبل واحد، فيا للعجب ويا للغرابة أن تذبح تلك الجماعة الكبيرة المسلحة بأمضى سلاح من غير أن تقاوم!، وكان قومنا الصليبيون يقبضون على كل شيء، وكانوا يبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعا ذهبية، فيا للشره وحب المال! وكانت الدماء تسيل كالأنهار في الطرق. وكان قومنا الصليبيون يدوسون جثث قتلى تلك الجماعة الكبرى التي لم يرض أحد من

---

(١٤٣) المرجع ذاته ص ٥٧٥،٥٧٦.

أفرادها بالنصرانية دينا. ثم أحضر بوهيموند جميع اولئك الذين اعتقلهم في برج القصر، وأمر بضرب رقاب عجائزهم وشيوخهم وببيع فتيانهم وكهولهم في أنطاكية ...).

ويقول أيضا: (وقد كان سلوك الصليبيين حين دخلوا القدس غير سلوك الخليفة الجواد الكريم عمر بن الخطاب وقتما دخلها منذ بضعة قرون.

قال ريموند داجيل الذي كان كاهن مدينة لوبوي: (لقد حدث ما هو عجيب عندما استولى قومنا الصليبيون على أسوار القدس وبروجها؛ فقد قطعت رؤوس بعض العرب وبقرت بطون بعضهم وقذف بعضهم من أعلى الأسوار، وحرق بعضهم في النار وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم، وكان المرء لا يمر إلا على جثث قتلى العرب، وذلك كله بعض ما أصاب العرب ...).

وقد روى ذلك الكاهن الحليم خبر ذبح عشرة آلاف مسلم في الحرم القدسي فقال: (لقد أفرط قومنا الصليبيون في سفك دماء المسلمين في معبد سليمان، فكانت جثث المسلمين وأيديهم وأذرعهم المبتورة تعوم فيها، وكان قومنا الصليبيون لا يطيقون رائحة بخارها).

(ولم يكتف قومنا الصليبيون الأتقياء بذلك، فعقدوا مؤتمرا أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود وخوارج النصارى الذين كان عددهم ستين ألفا فأفنوهم على بكرة أبيهم في ثمانية أيام، ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولدا ولا شيخا.

وقد أراد الصليبيون أن يستريحوا من عناء تذبيح أهل القدس قاطبة، فانهمكوا في كل ما يستقذره الانسان من ضروب السكر والعربدة ...).

ويقول في موضع آخر مقارنا بين ما تقدم من صنيع الصليبيين وبين سلوك صلاح الدين عندما طرد الصليبيين من بيت المقدس، وهزمهم شر هزيمة: (ولم يشأ السلطان صلاح الدين أن يفعل في الصليبيين مثلما فعله

الصليبيون الأولون في المسلمين من ضروب التعذيب والتقتيل، فيبيدهم على بكرة أبيهم، فقد اكتفى بفرض جزية طفيفة عليهم ومنع سلب شيء منهم)(١٤٤).

د ــ مذابح معاصرة:

تلك صور تاريخية من الماضي، رسمها التتار والصليبيون بالدماء والآلام والأحزان، فهل كانت من خصائص الماضي المظلم، أو أنها ما زالت وستظل طبائع مزروعة في كفار الدنيا إلى أن تقوم الساعة؟.

إن التاريخ المعاصر يؤكد أن الكفر ملة واحدة، وهم هم في حقدهم وضغنهم ومكرهم وموقفهم من المؤمنين، كما وصفهم ربهم الذي خلقهم فقال عنهم: « **لا يرقبون في مؤمن إلّا ولا ذمة، واولئك هم المعتدون** »(١٤٥).

(إن ما وقع من الوثنيين الهنود عند انفصال باكستان لا يقل شناعة ولا بشاعة عما وقع من التتار .... إن ثمانية ملايين من المهاجرين المسلمين من الهند ممن أفزعتهم الهجمات البربرية المتوحشة على المسلمين الباقين في الهند، فآثرو الهجرة على البقاء، قد وصل منهم إلى أطراف باكستان ثلاثة ملا يين فقط! أما الملايين الخمسة الباقية فقد قضوا بالطريق .. طلعت عليهم العصابات الهندية الوثنية المنظمة المعروفة للدولة الهندية جيدا والتي يهيمن عليها ناس من الكبار في الحكومة الهندية، فذبحتهم كالخراف على طول الطريق، وتركت جثثهم نهبا للطير والوحش بعد التمثيل بها ببشاعة منكرة لا تقل إن لم تزد على ما صنعه التتار بالمسلمين من أهل بغداد! أما المأساة البشعة المروعة المنظمة فكانت في ركاب القطار الذي نقل الموظفين المسلمين في دوائر الهند إلى باكستان. واجتمع في هذا القطار خمسون ألف موظف، ودخل القطار

---

(١٤٤) انظر أقوال ونقولات جوستاف لوبون في كتابه « حضارة العرب »
ص ٣٥٢ــ٣٥٧ تعريب محمد عادل زعيتر ــ طبع مصر دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م.

(١٤٥) التوبة ــ الآية ١٠.

بالخمسين ألف موظف في نفق بين الحدود الهندية الباكستانية يسمى ممر خيبر ... وخرج من الناحية الأخرى وليس به إلا أشلاء ممزقة متناثرة في القطار! لقد أوقفت العصابات الهندية الوثنية المدربة الموجهة القطار في النفق ولم تسمح له بالمضي في طريقه إلا بعد أن تحول الخمسون ألف موظف إلى أشلاء ودماء ....)[١٤٦].

وفي الصين الشيوعية وروسيا الشيوعية أباد خلفاء التتار من المسلمين في خلال ربع قرن ستة وعشرين مليوناً بمعدل مليون في السنة الواحدة[١٤٧].

وفي يوغسلافيا أبيد من المسلمين مليون بعد الحرب العالمية الثانية وما تزال عمليات الابادة والتعذيب الوحشي ماضية إلى الآن، ومن أمثلتها البشعة إلقاء المسلمين رجالا ونساءً في مفارم اللحوم ليخرجوا من الناحية الأخرى عجينة من اللحم والعظم والدماء[١٤٨].

وأما اليهود فإن مذابحهم في قبية ودير ياسين وغزة وطبرية وغرندل وحوسان وقلقيلية وكفر قاسم وغيرها معروفة[١٤٩].

ومن أحدث المجازر التي ارتكبتها كتائب الصليبيين بالاتفاق مع اليهود في لبنان، المذبحة التي قامت بها تلك الكتائب في مخيمات بيروت ــ صبرا وشاتيلا ــ في الشهر التاسع من عام ١٩٨٢، حيث تم فيه إبادة الألوف من المسلمين القاطنين في المخيمين المذكورين:

وفي وصف ذلك قال راديو لندن في إحدى نشراته الاخبارية: (قتل رجال القوات اليمينية في بيروت مئات من الرجال والنساء والأطفال في مخيمين فلسطينيين في الجزء الجنوبي من المدينة .... وقال المراسلون الذين توجهوا إلى هذين المخيمين هذا الصباح أنه كان من الصعب الحصول على تقدير دقيق

---

(١٤٦) عن سيد قطب ــ في ظلال القرآن ــ المجلد الرابع ص ١٥٣.

(١٤٧) المرجع ذاته ص ١٥٤.

(١٤٨) المرجع ذاته.

(١٤٩) انظر تفاصيل أفعالهم في هذه الأماكن عند عبد الله التل ــ خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ص ٣٢٦ وما بعدها.

لعدد القتلى، لأن الجثث كانت مبعثرة في مساحة كبيرة .... وقد أزاحت الجرافات حطام المنازل وردمته فوق الجثث لكي تخفيها ... ويقول مراسلنا إنه رأى قتلى في الشوارع والبيوت من رجال ونساء وأطفال وأمهات يحتضن اطفالهن).

ووجه مذيع إحدى شبكات التلفزيون الأمريكي تحذيرات متكررة إلى مشاهديه بأنه وصله للتو فيلم من بيروت عن المذابح التي ارتكبت هناك، وينصح الأطفال ومرضى القلب بعدم مشاهدة الفيلم؛ لأن ما يتضمنه أكبر مما تحتمله نفوسهم.

وذكرت وكالات الأنباء أن المخيمات الفلسطينية تحولت إلى مقابر جماعية إثر المجازر، وكان هواء المخيمات مثقلا برائحة الموت، فيما كانت الأشلاء البشرية منتشرة بين بيوت الطين، التي أصبحت ركاما نتيجة للقصف الاسرائيلي البربري.

وقالت صحيفة ديلي ميل البريطانية تصف بعض مشاهد المذبحة: (لقد كان القتل وحشيا وكان أولئك الذين ذبحوا في معظمهم من النساء والأطفال والعجزة، لقد ذبح المئات وربما ألف آخرون فوقهم، إذ جمعوا في جماعات صغيرة وأطلقت النيران عليهم، ويشهد العديد من الجثث على التشويه ...).

ويقول مراسل صحيفة يونايتد برس: (يا له من منظر مريع في مخيم شاتيلا .. الجثث كانت مصفوفة في سطور عند الجدران استعدادا للبدء في دفنها في مقابر جماعية، مئات من الجثث الممزقة والممثل بها .. فرق الانقاذ من المتطوعين تواصل تجميع الضحايا ... وقال هؤلاء المتطوعون بأنهم عثروا على قبر جماعي في الطرف الغربي من المخيم وبه ٢١٠ من الجثث في كل شارع يكتشف المتطوعون في فرق الانقاذ مناظر رهيبة مريعة ... كومة من ١٥ جثة تدل آثار التمثيل في أجساد الضحايا على أن قاتليهم سحلوهم ... آخرون قيدت أيديهم وعذبوا قبل أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة ... وامرأة قطعوا ثدييها ومثلوا بها ...).

وصحيفة انترناشيونال هيرالد تربيون أدلت بدلوها في وصف جانب من مشاهد المجزرة: (كان المنظر أشبه بكابوس مروع في مخيم شاتيلا عندما دخله المراسلون الأجانب صباح يوم السبت الماضي .. كانت بعض النسوة الفلسطينيات ينتحبن حول جثث أحبائهن وجيرانهن، كما بدت جثث الضحايا تنتفخ من شدة حرارة الشمس، لقد فجرت المنازل بالديناميت، ثم قامت الجرافات بتحويل ما تبقى منها إلى أكوام من الحجارة والتراب مع كثير من سكان تلك المنازل من الفلسطينيين العزل من النساء والأطفال الذين كانوا بداخل تلك المنازل. كانت مجموعة من جثث الضحايا ملقاة قرب الجدران، مما يؤكد أن العصابات الجبانة قامت بإعدامهم رميا بالرصاص بكل خسة ونذالة لم يشهد التاريخ مثيلا لها، كما كانت بعض الجثث متناثرة في الممرات الضيقة والشوارع ... في إحدى الحدائق شاهدنا جثتي امرأتين فلسطينيتين وقد القيتا على ركام الأنقاض، وإلى جانبهما رأس طفل رضيع قطع رأسه عن جسده، وكانت عيناه مخلوعتين، وعلى بعد أمتار قليلة رأينا بقية جسده المقطوع الرأس ... وفي إحدى الزوايا في شارع آخر من المخيم الفلسطيني شاهدنا جثتي فتاتين أعمارهما تتراوح بين ١١ــ١٢ عاما، مستلقيتين على ظهرهما وساقاهما مفتوحتان، حيث قام الأنذال باغتصابهما، ثم قاموا بإطلاق الرصاص على رأسيهما. إن كل زقاق وشارع ومنزل مهجور في مخيم شاتيلا يحكي قصة الرعب التي شهدها يومي الخميس والجمعة الماضيين)(١٥٠).

٨ ــ وتحت ضغط تلك الوقائع التاريخية أدرك المستشرقون المعتدلون مدى كذب الفرية القائلة بأن الإسلام انتشر بالسيف، وبصورة وحشية، واعترفوا بحقيقة أن عوامل انتشار الإسلام لا يرجع أي منها إلى الإكراه، وإنما إلى عوامل ذاتية في الإسلام والأخلاق التي ربى عليها أتباعه، ومن أقوالهم في ذلك:

« أ » فهذا توماس كارليل الحكيم ينتهي بزعم الزاعمين أن الإسلام انتشر

(١٥٠) انظر هذه الأقوال والأخبار، وأخبار أخرى عن مذبحة الفلسطينيين في مخيمات بيروت عند عبد الحفيظ محمد ــ المذبحة ــ بيروت ــ صبرا وشاتيلا ص ١١٣ــ١٢٠ طبع عمان الأردن ١٩٨٢ م ــ الطبعة الأولى.

بالسيف إلى الغاية من السخف والغثاثة، ولا يرضى أن يعتبر هذا الزعم من أكاذيب التاريخ لأنه يرى أنه أضعف من أن يحسب من الأكاذيب التي تحتاج إلى تصحيح، وهو أظهر بطلانا من أن يبطل بالمناقشة، لأن القائل به سواءٌ، ومن يقول: إن رجلا واحدا حمل سيفه وخرج إلى جميع مخالفيه ليبعث فيهم الخوف من سيفه ــ وحده ــ ويسوقهم كرها إلى اعتقاد ما ينكرون فيعتقدونه ويثبتون عليه، ثم يحملون السيف معه لتخويف الآخرين(١٥١).

« ب » ويقول غوستاف لوبون: (وسيرى القارئ حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم أن القوة لم تكن عاملا في انتشار القرآن، وأن العرب تركوا المغلوبين أحرارا في أديانهم. فإذا حدث أن انتحل بعض الشعوب النصرانية الإسلام واتخذ العربية لغة له فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس عهد بمثله، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى.

وقد أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة، فلما قهر النصارى عرب الأندلس فضّل معظمهم القتل والطرد على ترك الإسلام.

وقد انتشر الإسلام بالدعوة لا بالسيف، وبالدعوة وحدها اعتنقت الشعوب التي قهرت العرب كالترك والمغول الإسلام، وبالدعوة انتشر الإسلام في الهند التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل، فبلغ عدد المسلمين فيها خمسين مليون نفس، وبالدعوة يزيد عدد مسلمي الهند يوما فيوما على الرغم من أن الانجليز الذين هم سادة الهند في الوقت الحاضر يجهزون البعثات التبشيرية ويرسلونها تباعا إلى الهند لتنصير مسلميها على غير جدوى.

ولم يكن القرآن في الصين، التي لم يفتح العرب أي جزء منها قط، أقل انتشارا، فسترى في فصل آخر سرعة الدعوة الإسلامية فيها وزيادة عدد

---

(١٥١) انظر: عباس محمود العقاد ــ ما يقال عن الإسلام ص ١٣٦ ــ نشر دار الكتاب العربي ــ بيروت الطبعة الثانية ١٩٦٦ م وحقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٢١١.

مسلميها عن عشرين مليوناً ...)[١٥٢].

« ج » يقول روبرتسون في كتابه تاريخ شارلكن: (إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الجهاد والتسامح نحو أتباع الأديان الأخرى الذين غلبوهم وتركوهم أحرارا في إقامة شعائرهم الدينية)[١٥٣].

« د » ويقول ميشود في كتابه تاريخ الحروب الصليبية: (إن الإسلام الذي أمر بالجهاد، متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وهو قد أعفى البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب، وقد حرم قتل الرهبان على الخصوص لعكوفهم على العبادات. ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس، وقد ذبح الصليبيون المسلمين وحرقوا اليهود وقتما دخلوها[١٥٤].

* * *

---

(١٥٢) حضارة العرب ص ١٤٥،١٤٦ تعريب محمد عادل زعيتر ــ طبع مصر ــ دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي سنة ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م.

(١٥٣) انظر المرجع ذاته هامش صفحة ١٤٥.

(١٥٤) المرجع ذاته.

المطلب الثالث

الجواب عن الافتراء الثاني

تلك هي الفرية الأولى، وذلك هو الجواب عنها، وأما الشبهة الثانية التي أثارها فريق من المبشرين والمستشرقين، والتي أرادوا بها النيل من صحابة رسول الله ﷺ وأتباعه، ومن أهدافهم النفسية التي كانت وراء صبرهم ومصابرتهم وشجاعتهم وانتصاراتهم، حيث أرجعوا كل ذلك إلى روحهم الثائرة منذ أيام جاهليتهم، وحبهم الغزو والنهب، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يفعل شيئا إلا أنه غير من وجهتهم في غزو بعضهم بعضا، واستلاب بعضهم بعضا، إلى غزو الشعوب الأخرى واغتنام أموالها ... إن هذه الفرية أشد تهافتا من سابقتها أمام المبادئ الإسلامية والواقع الذي كان عليه أولئك المجاهدون، والمحاكمة العقلية السليمة:

أولا ــ المبادئ الإسلامية:

نذكّر فيما يلي بأربعة مبادئ الإسلامية كل واحد منها يدفع تلك الشبهة، ويجيب عن ذلك الافتراء جوابا كافيا، فكيف إذا اجتمعت؟! وهي:

١ ــ إن ما تقدم ذكره في المطلب السابق عن أهداف الجهاد وبواعثه يبين بما لا يدع مجالا للشك أن بواعث الجهاد في الإسلام كلها معنوية، وليس فيها أي باعث مادي: فهي إما لدفع الأذى ورد العدوان عن منجزات الدعوة الإسلامية، وإما لتحطيم الحواجز المادية والمعنوية التي يقيمها الكفار والمنتفعين بالكفر والجاهلية أمام الدعوة والدعاة، وإما لرفع الفتنة والظلم والفساد عن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان وشمولهم بعدل الإسلام وقوانينه ورحمته. وهذا هو سبيل الله الذي اقترن به اسم الجهاد منذ أول يوم شرع فيه في تاريخ الدعوة الإسلامية. وإن الله سبحانه وتعالى عندما أذن بالقتال لعباده

المؤمنين وجنده المخلصين، قيّدهم بهذا السبيل وأمرهم بالالتزام به، سواء في أثناء الحرب أو بعدها، فقد قال لهم ربهم في أول نداء لهم أذن لهم به في حمل السلاح: « **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز * الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتووا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** »(١٥٥)؛ فالله سبحانه وتعالى يبين من أول الأمر أن الذين أذن لهم بالقتال هم الذين إن انتصروا في معاركهم لم يستعمروا الشعوب ولا أكلوا خيراتها ولا انتهبوا ثرواتها ولا أذلوا كرامتها، وإنما عبدوا الله حق عبادته وأنفقوا من أموالهم ونشروا الخير والعدل فيما حلوا به من بقاع الأرض، وكافحوا الشر والجريمة والفساد. وإذا كان الله سبحانه قد ذكر ذلك بصيغة الاخبار فإن مفادها الأمر والالزام بتلك الصفات فكأنه يقول لهم: إنني أذنت لكم بالقتال بشرط أن تتصفوا بهذه الصفات إن مكنتكم في الأرض.

وبعد هذا وفي جميع المراحل التي مرت بها الدعوة الإسلامية وكلما أمر الله جنده بالجهاد وحثهم عليه، أمرهم بالتزام سبيله وذكّرهم بالغاية التي يقاتلون من أجلها، والدوافع التي يجب أن يستجيبوا لها،وهي إعلاء كلمة الله عز وجل والدفاع عنها وتحصينها من عدوان الكافرين وتبليغها للناس، فقال لهم: « **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** »(١٥٦)، وقال لهم: « **الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت** »(١٥٧).

وقال لهم محذرا أن تنحرف بهم الغايات فيكون جهادهم من أجل استعلائهم على الناس والتسلط عليهم: « **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا**

---

(١٥٥) الحج ــ الآيات ٣٩ــ٤١.

(١٥٦) البقرة ــ الآية ١٩٠.

(١٥٧) النساء الآية ٧٦.

يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين »(١٥٨) وقال لهم مبينا لهم باعث قتالهم وهدف جهادهم: « **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »**(١٥٩).

ولقد عاتب الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم ﷺ لما أخذ فداء أسرى بدر لفقر المهاجرين وحاجتهم، فقال عز وجل: « **ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم »**(١٦٠). ومع أن هذا الفداء الذي كان بعد معركة بدر لم يكن مغنما دنيويا ذا بال؛ حيث قبل الرسول ﷺ من كل أسير أن يفتدي نفسه بقدر طاقته، حتى قبل من بعضهم أن يعلموا أبناء المسلمين القراءة والكتابة مقابل اطلاق سراحهم، إلا أن الله عز وجل يريد أن ينتزع من قلوبهم أية نزعة مادية ولو كانت بسيطة، حتى تخلص نياتهم لله عز وجل وإعلاء كلمته في الأرض.

والرسول عليه الصلاة والسلام عندما يُسأل عن الجهاد أيّ أشكاله يكون في سبيل الله يبين للسائل أن من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو المجاهد في سبيل الله، ومن قاتل لغير ذلك من ذكر أو مغنم أو حمية فهو ليس في سبيل الله وإنما هو في سبيل الطاغوت، فقد روى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أن اعرابيا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »(١٦١).

---

(١٥٨) القصص ــ الآية ٨٣.

(١٥٩) الأنفال ــ الآية ٣٩.

(١٦٠) الأنفال ــ الآيتان ٦٧، ٦٨.

(١٦١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ــ انظر: المنذري الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ج ٢ ص ٢٩٦ ــ طبع مصر ــ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ــ الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا قال: يا رسول الله، رجل يريد الجهاد، وهو يريد عرضا من الدنيا؟ فقال رسول الله ﷺ: لا أجر له، فأعظم ذلك الناس، وقالوا للرجل: عد لرسول الله ﷺ فلعلك لم تفهمه. فقال الرجل: يا رسول الله رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرض الدنيا؟ قال: لا أجر له، فأعظم ذلك الناس، وقالوا: عد لرسول الله ﷺ. فقال له الثالثة: رجل يريد الجهاد وهو يبتغي عرضا من الدنيا؟ فقال: لا أجر له(١٦٢).

٢ ــ مما يُعدّ معلوما من الإسلام بالضرورة أن الله عز وجل لا يقبل عملا، جهادا كان أو غيره إلا أن يكون لوجهه سبحانه ولا يُبتغى به عرض الدنيا.

فالإسلام من حيث الأساس يرفض كل جهاد لا يكون في غايته من أجل إعلاء كلمة الله، ويدعو أتباعه إلى الاخلاص لله جل وعلا في كل جهد يبذلونه، ويربيهم على ذلك ولا يجعله مجرد فكرة يلقيها إليهم، وإنما يحثهم على تطبيقها في واقعهم: في أقوالهم وأعمالهم، في أفكارهم ونواياهم، في سلمهم وحربهم، في حبهم وبغضهم وفي كل نشاط يصدر عنهم، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »(١٦٣).

٣ ــ إن السلّم الذي وضعه الإسلام للقيم يقوم على أساس تقديم قيم الآخرة والمعاني الخالدة التي لا تفنى بموت الإنسان ولا تفارقه بمفارقة الدنيا على تلك القيم الدنيوية التي تقتصر في نفعها للإنسان على الفترة التي يقضيها في هذه الحياة الدنيا. وعلى هذا الأساس كانت الآخرة هي المستقر الذي يشغل بال المؤمن ويعمل على إعماره بالأعمال الصالحة يقوم بها في الحياة الدنيا، وأما الدنيا فهي بالنسبة له ظرف زماني ومكاني للامتحان الذي عقده الرب لعباده،

(١٦٢) رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه والحاكم باختصار وصححه ــ انظر المرجع ذاته.

(١٦٣) رواه البخاري ومسلم واختاره النووي في رياض الصاحين ــ انظر: محمد بن علان الصديقي دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ج ١ ص ٤١ وما بعدها ــ طبع مصر ــ مطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٦ م.

وليس سليم العقل ذلك الذي شغلته قاعة الامتحان فتلهى بها وحسبها هدفه النهائي وتمسك بها، ولهذا كان كل عمل يزيد في الوزن عند الله يوم الحساب أفضل وأحسن في اعتقاد المسلم من أي عمل آخر مهما كانت الفوائد المادية التي يجنيها في هذا العمل في الحياة الدنيا. ومن هنا يشتد طلب المؤمن الصادق لقيم الإيمان والجهاد والدعوة إلى الله والتحلي بمحاسن الأخلاق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من العبادات، أما الدنيا فلا يتلهف عليها وإنما يأخذ منها ما يعينه على تحقيق تلك الآمال الأخروية؛ فالقيم المادية ليست مقصورة لذاتها وإنما هي وسائل يهتم بها ولا يهملها، ولكنه لا يضحي بالقيم الأخروية في سبيلها وإنما يضحي بها في سبيل الآخرة.

ومن هذا المنطلق كان الحث في الإسلام على الزهد في الدنيا، ولا شك أن من يتربى على هذه المعاني فإنه لا يتطرق إلى نفسه شيء من الجشع وحب الغنيمة وغير ذلك مما نسبه المفترون إلى المسلمين المجاهدين.

هذا ويدل على تلك المعاني كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، نقتصر على ذكر بعضها فيما يلي:

قال تعالى: « **إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازَّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون** »(١٦٤)، وقال تعالى: « **واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا * المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا** »(١٦٥)، وقال تعالى: « **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد**

---

(١٦٤) يونس ـــ الآية ٢٤.

(١٦٥) الكهف ـــ الآيتان ٤٥،٤٦.

ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور »(١٦٦). فنلاحظ في هذه الآية تمثيل هذه الحياة الدنيا العجيبة في سرعة نقصها، وذهاب نعيمها بعد اقبالها، واغترار الناس بها، بزوال خضرة النبات فجأة وذهابه حطاما بعدما كان غضا(١٦٧)، فهي إذن لا تستحق أن تجعل هدفا نهائيا لمن يفهم حقيقتها.

وقال تعالى: « **زُيِّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب** »(١٦٨)، وقال تعالى: « **يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور** »(١٦٩)، وقال تعالى: « **ألهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر * كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون * كلا لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم * ثم لترونها عين اليقين * ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم** »(١٧٠)، وقال تعالى: « **وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون** »(١٧١)؛ وهكذا فإن الحياة الحقيقية، الحياة الدائمة الباقية، التي تستحق أن يعمل من أجلها ويبذل المال والعمر والقيم الدنيوية في سبيلها هي الحياة الأخرى، وأما الحياة الدنيا فلا تستحق من العناية إلا بقدر ما يساعد على تحقيق تلك الحياة الحقيقية لأنها ليست إلا لذائذ ومتاعاً زائلا وعبثاً باطلا.

وأما الأحاديث في باب الزهد فأكثر من أن تحصر، ونكتفي منها بهذه الطائفة:

---

(١٦٦) الحديد ــ الآية ٢٠.

(١٦٧) انظر: مجموعة المؤلفين مصطفى الخن وإخوانه ــ نزهة المتقين شرح رياض الصالحين ج ١ ص ٤٠٩ طبع بيروت ــ مؤسسة الرسالة ــ الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م.

(١٦٨) آل عمران ــ الآية ١٤.

(١٦٩) فاطر ــ الآية ٥.

(١٧٠) سورة التكاثر.

(١٧١) العنكبوت ــ الآية ٦٤.

ـــ عن عمرو بن عوف الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال: « والله، ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم »(١٧٢)، فهذا تحذير من رسول الله ﷺ لكل من تبعه أن لا يتنافسوا في طلب الدنياويدعوهم إلى عدم الاطمئنان إلى زخارفها وشهواتها.

ـــ وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة »(١٧٣)، وفيه دعوة المؤمنين إلى عدم الفرح بالدنيا لأنها زائلة وأن يجعلوا جميع اهتمامهم بالآخرة لأن حياتها هي الدائمة الباقية، وهي في معنى قوله تعالى: « **وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون** ».

ـــ وعن أنس أيضا عن رسول الله ﷺ قال: « يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد: يرجع أهله وماله ويبقى عمله »(١٧٤).

ـــ وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر بالسوق والناس كنفيه(١٧٥)، فمر بجدي أسَكّ(١٧٦) ميت، فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: « أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟! ثم قال: أتحبون أنه لكم؟ قالوا: والله لو كان حيا كان عيبا؛ إنه أسك، فكيف وهو ميت! فقال: فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم »(١٧٧).

---

(١٧٢) أخرجه البخاري ومسلم واختاره النووي في رياض الصالحين ـــ انظر: نزهة المتقين ج ١ ص ٤١١.

(١٧٣) رواه البخاري في الرقاق والجهاد « باب التحريض على القتال » ومناقب الأنصار والمغازي، ورواه مسلم في الجهاد « باب غزوة الأحزاب »، واختاره النووي في رياض الصالحين ـــ انظر: نزهة المتقين ج ١ ص ٤١٢.

(١٧٤) أخرجه البخاري في الرقاق « باب سكرات الموت » ومسلم في أوائل كتاب الزهد والرقائق واختاره النووي في رياض الصالحين ـــ انظر نزهة المتقين ج ١ ص ٤١٣.

(١٧٥) أي عن جانبيه.

(١٧٦) الأسك: الصغير الأذن.

(١٧٧) رواه مسلم في أوائل كتاب الزهد والرقائق واختاره النووي في رياض الصالحين ـــ انظر: نزهة المتقين ج ١ ص ٤١٤.

— وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أعطي رضي وإن لم يعط لم يرض »(١٧٨)، فيجب على المؤمن أن يحذر من أن يكون عبدا لزينة هذه الحياة من مال وغيره وأن تظل عبوديته خالصة لربه.

— وعن أبي العباس سهل بن سعد السعدي رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس، فقال: « ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس »(١٧٩).

— وعنه أيضا قال: قال رسول الله ﷺ: « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء »(١٨٠).

تلك هي الدنيا وزينتها في الميزان الرباني، وتلك هي توجيهات القرآن الكريم والرسول العظيم عليه أفضل الصلاة والسلام، وذلك هو سلّم القيم الرباني، وكلها تفضح ذلك الافتراء الذي يتهم المجاهدين في أهدافهم وغاياتهم فقد كانوا تجسيدا عمليا لتلك التربية الربانية، لم يخرجوا عنها وإن تفاوتوا في تمثلها.

٤ — ومن المبادئ الإسلامية التي تكذب تلك الفرية أن دين الإسلام يقف من الترف والسرف والانخراط في متع الدنيا موقفا يحول بين المؤمنين وبين هذه الأمور جميعها، حتى ولو حصلوا عليها بغير حرب وإراقة دماء، فكيف إذا كانت لا تصل إلى أيديهم إلا بالتضحية بالأنفس والأبناء؟! وهل كان صحابة

(١٧٨) رواه البخاري في الجهاد « باب الحراسة » وفي الرقاق واختاره النووي في رياض الصالحين — انظر: نزهة المتقين ج ١ ص ٤١٧.

(١٧٩) رواه ابن ماجه في الزهد وأخرجه الطبراني في معجمه الكبير، والحاكم في الرقاق من مستدركه واختاره النووي في رياض الصالحين ووصفه بأنه حديث حسن — انظر: نزهة المتقين ج ١ ص ٤٢٠.

(١٨٠) رواه الترمذي في الزهد — انظر عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي لابن العربي ج ٩ ص ١٩٨، وقد قال عنه الترمذي: هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه.

رسول الله ﷺ وأتباعه يقومون بكل ما قاموا به من تضحيات وبطولات ولا يلقون أسلحتهم معظم عمرهم من أجل أن يرتكبوا محرما من المحرمات، وكبيرة من الكبائر هي الترف والاسراف واتباع الهوى. إن القرآن الكريم الذي يعتقد المؤمنون اعتقادا جازما أنه خطاب الله تعالى، يحذرهم تحذيرا شديدا من الاسترسال في أخذ زينة الدنيا من أموال وشهوات، ويوجه قلوبهم وجوارحهم إلى التعلق بنعيم مقيم بعد الحياة الدنيا لا قبلها.

قال عز وجل: « **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين** »(١٨١)، وإن آيات القرآن الكريم لتنطق بأن الترف صفة من صفات الكافرين المكذبين بالآخرة، وأنه سبب الظلم والتكذيب والفسوق، قال تعالى: « **وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون** »(١٨٢)، وقال سبحانه: « **واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين** »(١٨٣)، وقال عز وجل: « **وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون** »(١٨٤)، وقال أيضا: « **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا** »(١٨٥).

وأما الاسراف فإنه من الخصال الممقوتة عند الله عز وجل، نهى عنه عباده وحذرهم منه، وأمر المؤمنين بالاعتدال في الحياة الدنيا، وأن لا يأخذوا منها إلا ما يعينهم على الطاعة والجهاد، فما زاد فهو الاسراف، قال تعالى: « **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين** »(١٨٦)، وقال أيضا: « **إن**

---

(١٨١) القصص ــ الآية ٨٣.

(١٨٢) المؤمنون ــ الآية ٣٣.

(١٨٣) هود ــ الآية ١١٦.

(١٨٤) سبأ ــ الآية ٣٤.

(١٨٥) الاسراء ــ الآية ١٦.

(١٨٦) الأعراف ــ الآية ٣١.

الله لا يهدي من هو مسرف كذاب »[187]، ووصف فرعون بالعلو في الأرض والاسراف، قال عز وجل: « **وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين »**[188].

إن السلف كانوا وقافين عند حدود الله تعالى، ملتزمين بأمره منتهين عما نهى عنه، أكثر الناس توفيقا بين القول والعمل، لا يخالفون هذه الآيات البينات، فلم يسعوا في الأرض وراء الترف المحرم ولا السرف الممقوت، وإن هذه المطامع والأهداف الدنيئة التي ألصقها أعداء الإسلام بأولئك الطاهرين إن هي إلا طباعهم وخصالهم لأنهم لا يؤمنون بيوم آخر غير هذه الحياة الدنيا، ولا بسعادة غير شهواتها.

وأما القوم الذين يحملون تلك المبادئ الربانية فهم أبعد الناس عن تلك السفاسف والأمور الصغيرة؛ لأنهم يؤمنون بالآخرة ويعرفون قيمتها وقيمة هذه الدنيا، ويفهمون معنى خطاب ربهم « **والآخرة خير وأبقى »**[189]، ويصدقون قول خالقهم: « **فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى * وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى »**[190]، وما تقدم من قول نبيهم محمد عليه الصلاة والسلام: « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء »[191].

إن الذي يعرف نعيم الجنة ويؤمن به لا يتلهى عنه بملذات الدنيا الفانية وزخارفها، ولا يلحق غرائزه ويترك اليقين العظيم بالخلود في النعيم. إن اولئك القوم الصالحين عرفوا ما أعد للزاهدين في الدنيا من العزة والكرامة، وما أعد لهم من الثواب في الآخرة، فأداروا ظهورهم لداعي الشهوة ويمموا شطر داعي

---

(١٨٧) غافر ــ الآية ٢٨.

(١٨٨) يونس ــ الآية ٨٣.

(١٨٩) الأعلى ــ الآية ١٧.

(١٩٠) النازعات ــ الآيات ٣٧ــ٤١.

(١٩١) انظر تخريجه في صفحة ٨٦

الرحمن، إنهم عرفوا أن حب الله وحب الدنيا لا يجتمعان في قلب واحد، فأفرغوا قلوبهم من حب الدنيا وملأوها بحب الله، خوفا من أن يدخلوا فيمن وصفهم الله تعالى بقوله: « **ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون** »(١٩٢)، وخوفا من يقال لهم يوم القيامة « **أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها** »(١٩٣).

ثانيا ــ الواقع:

ولقد أثمرت تلك المبادئ الإسلامية في المجاهدين وظهرت آثار تلك التوجيهات النبوية الكريمة في صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام ومن تبعهم بإحسان. واستجابوا لتلك النداءات الربانية كما استجابوا لغيرها من أوامر الله عز وجل، وأحالوا كل ذلك إلى صور واقعية في جهادهم بصورة خاصة، وحياتهم كلها بصورة عامة:

(١) إن وقائع حروبهم ومعاركهم تنفي نفيا قاطعا أن الدوافع المادية كانت هي الباعث لهم على التضحيات العظيمة التي كانوا يقدمونها في تلك المعارك، ولقد كان أحدهم يتقدم إلى المعركة وغاية ما يؤمله هو إحراز شرف الشهادة ونعيم الجنة. ولقد حدثتنا أخبارهم الصادقة أن أحدهم كان يقذف بالتمرة من فمه حين يسمع وعد الرسول عليه الصلاة والسلام للشهداء بالجنة، ويقذف بنفسه في أتون المعركة وهو يقول: بخ بخ، ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا هذه التمرات، والله إنها لحياة طويلة، ثم ما يزال يقاتل حتى يقتل(١٩٤). وكان أحدهم يبرز لقتال الكفار وهو يقول: الجنة الجنة، والله إني لأجد ريحها دون أحد(١٩٥).

---

(١٩٢) يونس ــ الآية ٧.

(١٩٣) الأحقاف ــ الآية ٢٠.

(١٩٤) انظر: علي بن برهان الدين الحلبي ــ السيرة الحلبية ج ٢ ص ٤١١، وانظر: محمد بن علان الصديقي ــ دليل الفاتحين ج ٤ ص ١١٨، ١١٩.

(١٩٥) انظر: فتح الباري ج ٧ ص ٢٨٥، والكاند هلوي ــ حياة الصحابة ج ١ ص ٥١٩ طبع القاهرة دار النصر للطباعة ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م، وانظر المنذري ــ الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٣١٢.

(٢) لقد ظن بعض طواغيت الأرض ممن تصدى لهم جند الله مثل هذا الظن السيء الذي تعمده المبشرون وكثير من المستشرقين: ظنوا أن جهاد المسلمين كحروبهم الخسيسة في أهدافها، فعرضوا على المسلمين أن يدفعوا لهم من عرض الدنيا أموالا وغيرها، ليعدلوا عن الجهاد ويرجعوا إلى بلادهم، فكانوا يجيبونهم في كل مرة « والله ما هذا الذي خرجنا من أجله، ولكن الله ابتعثنا لننقذكم من عبادة بعضكم بعضا إلى عبادة الله الواحد القهار، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، فإن أنتم أسلمتم رجعنا عنكم، ويبقى ملككم لكم وأرضكم لكم لا ننازعكم في شيء منها »، فهل يعقل ذو عقل أن هذا جواب قوم يقاتلون من أجل المغانم والاستيلاء على الأراضي والأموال ؟!.

هذا وإن المفيد في هذا المقام أن ننقل — وإن طال بنا الكلام — تفصيل ما دار من الحوار بين نفر من فرسان المسلمين وبين يزدجرد ملك الفرس وبعض قادته؛ ليرى القارئ ما وصل إليه جند الإسلام من الفهم الصادق لدينهم والالتزام الكامل لأوامر نبيهم، وطهارة النفوس والقلوب من الطمع في غير رضا الله وهداية الناس، وتخليصهم من ظلم الظالمين، وليرى أصحاب العقول عظم تلك الفرية التي افتراها اولئك الحاقدون على أشرف الناس وأكرمهم:

(لقد سأل ذلك الملك أولئك الفرسان: ما جاء بكم؟ وماذا دعاكم إلى غزونا والولوع ببلادنا؟! أمن أجل أنا أجممناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟!، فقال لهم النعمان بن مقرن: إن شئتم أجبت عنكم، ومن شاء آثرته، فقالوا بل تكلم، وقالوا للملك: كلام هذا الرجل كلامنا، فتكلم النعمان فقال: إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير ويأمرنا به، ويعرفنا الشر وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة، فلم يدع إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين: فرقة تقاربه وفرقة تباعده، ولا يدخل معه في دينه إلا الخواص، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث، ثم أُمر أن ينبذ إلى من خالفه من العرب وبدأ بهم

وفعل فدخلوا معه جميعا على وجهين: مكره عليه فاغتبط، وطائع أتاه فازداد، فعرفنا جميعا فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق. ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الانصاف؛ فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسَّن الحسن وقبَّح القبيح كله، فإذا أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه: الجزاء، فإن أبيتم فالمناجزة. فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله، وأقمناكم عليه، على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم.

فتكلم يزدجرد فقال: إني لا أعلم أمة في الأرض كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوننا كم، لا تغزون فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم، فإن كان عددكم كثر فلا يغرنكم منا، وإن كان الجَهْدُ دعاكم فرضنا لكم قوتا إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم.

فقام المغيرة بن زرارة بن النباش الأسيدي فقال: أيها الملك، إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم، وهم أشراف يستحيون من الأشراف، وإنما يكرم الأشرافَ الأشرافُ، وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه، وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك، فجاوبني لأكون الذي أبلغك، ويشهدون على ذلك. إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالما، فأما ما ذكرت من سوء الحال، فما كان أسوأ حالا منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات، فنرى ذلك طعامنا، وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الأبل وأشعار الغنم، ديننا أن يقتل بعضنا بعضا، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل من طعامنا، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك، فبعث الله إلينا رجلا معروفا، نعرف نسبه، ونعرف وجهه ومولده، فأرضه خير أرضنا، وحسبه خير أحسابنا، وبيته أعظم بيوتنا، وقبيلته خير قبائلنا، هو بنفسه كان خيرنا في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلمنا، فدعانا إلى أمر فلم

يجبه أحد قبل تِرب كان له، وكان الخليفة من بعده، فقال وقلنا وصدق وكذبنا، وزاد ونقصنا، فلم يقل شيئا إلا كان، فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه، فصار فيما يننا وبين رب العالمين، فما قال لنا فهو قول الله، وما أمرنا فهو أمر الله، فقال لنا: إن ربكم يقول: إني أنا الله وحدي لا شريك لي، كنت إذ لم يكن شيء، وكل شي، هالك إلا وجهي، وأنا خلقت كل شيء، وإليَّ يصير كل شيء، وإن رحمتي أدركتكم، فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي، ولأحلكم داري دار السلام، فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق وقال: من تابعكم على هذا فله ما لكم وعليه ما عليكم، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية، ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم، ومن أبى فقاتلوه، فأنا الحكم بينكم، فمن قُتل منكم أدخلته جنتي، ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناوأه؛ فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر، وإن شئت فالسيف، أو تسلم فتنجي نفسك. فقال يزدجرد: أتستقبلني بمثل هذا؟! فقال المغيرة: ما استقبلت إلا من كلمني، ولو كلمني غيرك لم أستقبلك به ....)(١٩٦).

هذه هي أجوبة جند الإسلام لملك الفرس، فهل يشمّ منصف من الناس فيها رائحة لحب الدنيا أو أثرا لحب التكبر والعلو في الأرض. إن ذلك الملك كان يعرف بعض حالهم قبل الإسلام، ويعرف فقرهم وحاجتهم، فظنهم أنهم خرجوا طلبا للدنيا والخلاص من الفقر وضيق الحال، فأخبروه أنهم كانوا في الضيق أكثر مما قال، ولم ينكروا ما كانت عليه حالهم، ولكنهم أعلموه أن هذا لم يكن دافعهم في الخروج إليهم، وإنما كان دافعهم دينا وعقيدة، وأمرا من الله بتحرير الناس من ظلم الناس، وطلباً للآخرة لا للدنيا. وانظر إليهم يهتبلون كل فرصة، يدعون فيها إلى الله ودينه، فيعرضون هذا الدين ليزدجرد بكل وضوح وبساطة، يبينون له أن دخوله ودخول قومه في دين الله أفضل

(١٩٦) انظر الطبري ــ تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٤٩٨ــ٥٠٠.

عندهم وأحب من كل ما رزقهم الله من مباهج وزينة، فإن فعلوا ذلك رجعوا عنهم، ولم يأخذوا من دنياهم أي شيء. فهل هذه حال قوم باعوا نفوسهم من أجل لقمة العيش كما يقول المفترون؟! وهل لطلاب الدنيا مبدأ يدعون إليه غير إذلال الناس وأخذ خيراتهم.

وفي موقف آخر قال رستم لفرسان الإسلام: (أنتم جيراننا، وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا، فكنا نحسن جوارهم، ونكف الأذى عنهم، ونوليهم المرافق الكثيرة، ونحفظهم في أهل باديتهم، فنرعيهم مراعينا، ونميرهم من بلادنا ولا نمنعهم من التجارة في شيء من أرضنا، وقد كان لهم في ذلك معاش. فقال له فارس مسلم: صدقت، قد كان ما تذكر، وليس أمرنا أمر اولئك ولا طلبتنا، **إنا لم نأتكم لطلب الدنيا، إنما طلبتُنا وهمُّنا الآخرة**، كنا كما ذكرت: يدين لكم من ورد عليكم منا، ويضرع إليكم يطلب ما في أيديكم، ثم بعث الله تبارك وتعالى إلينا رسولاً، فدعانا إلى ربه، فأجبناه، ووعدنا بالنصر على عدونا ما دمنا نقر بالدين الحق، الذي لا يرغب عنه أحد إلا ذل، ولا يعتصم به أحد إلا عز. فقال رستم: وما هو؟ قال: أما عموده الذي لا يصلح منه شيء إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، والاقرار بما جاء من عند الله تعالى. قال: ما أحسن هذا، وأي شيء أيضا؟ قال: **وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى**، قال: حسن، وأي شيء أيضا؟ قال: والناس بنو آدم وحواء إخوة لأب وأم، قال: ما أحسن هذا! ثم قال له رستم: أرأيت لو أني رضيت بهذا الأمر وأجبتكم إليه، ومعي قومي، كيف يكون أمركم؟ أترجعون؟ قال: **إي والله، ثم لا نقرب بلادكم أبدا إلا في تجارة أو حاجة**. قال: صدقتني والله، أما إن أهل فارس منذ ولي أردشير لم يدعوا أحدا يخرج من عمله من السِّفلة، كانوا يقولون: إذا خرجوا من أعمالهم تعدوا طورهم، وعادوا أشرافهم، فقال له القائد المسلم: نحن خير الناس للناس، فلا نستطيع أن نكون كما تقول، نطيع الله في السِّفلة، ولا يضرنا من عصى الله فينا، فانصرف عنه، ودعا رجال فارس فذاكرهم هذا فحموا من

ذلك وأنفوا ...)[١٩٧].

نعم إن أهل الجاهلية لا يعرفون من الحروب إلا ما كان من أجل الدنيا ، ولقد كان أهل الهدى يجتهدون في أن يبينوا لهم أن جهادهم يختلف عن حروبهم ، وأن غايتهم ليست كما عهدوا من حروب البشر ، وأن الدنيا عند المؤمنين لا تساوي جناح بعوضة ، ولا تستحق أن يستلَّ في سبيلها حسام ، فضلا عن بذل الدماء والمهج .

وهذه صورة أخرى لجند الإسلام ، تفضح ما نسجه الأعداء حول أهداف المجاهدين في جهادهم ، ويرى المنصفون من خلالها أي ضمائر نقية وأسلحة قوية كان حملة الإسلام يلقون بها من وقف في طريق دعوة الله ، ويرون فيها نبل أهدافهم وطهارة قلوبهم ، وبراءتها عن كل مطمع دنيوي :

(لمَّا نزل رستم قائد الفرس بالقادسية ، أرسل إلى سعد بن أبي وقاص أن ابعث لنا رجلا نكلمه . فخرج إليه في اليوم الأول رِبعِيّ بن عامر ، وسار ليدخل على رستم في عسكره ، فاحتبسه الذين على القنطرة ، وأرسل إلى رستم لمجيئه ، فاستشار عظماء أهل فارس ، فقال ما ترون ؟ أنباهي أم نتهاون ؟ فأجمع ملؤهم على التهاون . فأظهروا الزّبرج ، وبسطوا البسط والنمارق ، ولم يتركوا شيئا ، ووضع لرستم سرير الذهب ، وألبس زينته من الأنماط والوسائد المنسوجة بالذهب . وأقبل ربعي بن عامر على فرس له زبَّاء ــ طويلة الشعر كثيرته ــ قصيرة ، معه سيف له مشوف ــ مجلو ــ وغمده لفافة ثوب خلق ، ومعه قوسه ونبله ، ورمحه ، وترسه ، فلما غشي الملك وانتهى إليه وإلى أدنى البسط ، قيل له انزل ، فحملها على البساط ، فلما استوت عليه نزل عنها وربطها بوسادتين ، فشقهما ، ثم أدخل الحبل فيهما ، فلم يستطيعوا أن ينهوه ، وإنما أروه التهاون ، وعرف ما أرادوا فأراد استحراجهم ، وعليه درع له ، كأنها أضاة (غدير) ويلمقه (قباؤه) عباءة بعيره ، قد جابها ــ قوَّر جيبها ــ وتدرعها ، وشدها على وسطه بسَلَب ــ ليف ــ وقد شد رأسه بمعجرته ، وكان أكثر

---

(١٩٧) المرجع ذاته ج ٣ ص ٥١٧،٥١٨ .

العرب شعرا، ومعجرته نسعة بعيره، ولرأسه أربع ضفائر، قد قمن قياما كأنهن قرون الوعلة، فقالوا ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم لأضع سلاحي بأمركم، أنتم دعوتموني، فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعت، فأخبروا رستم فقال: ائذنوا له؛ هل هو إلا رجل واحد؟ فأقبل يتوكأ على رمحه، ويزج النمارق والبسط، فما ترك لهم نمرقة ولا بساطا إلا أفسده، وتركه منهتكا مخرقا، فلما دنا من رستم تعلق به الحرس، وجلس على الأرض، وركز رمحه بالبسط، فقالوا: ما حملك على هذا؟ قال: **إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه**. فكلمه فقال: ما جاء بكم؟ قال ربعي: **الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام**، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نفضي إلى موعود الله. قال: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي.
فقال رستم: قد سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال: نعم، كم أحب إليكم أيوما أو يومين؟ قال: لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا، وأراد مقاربته ومدافعته. فقال: إن مما سنَّ لنا رسول الله ﷺ وعمل به أئمتنا ألا نمكن الأعداء من آذاننا ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاثا، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل، اختر الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزاء فنقبل ونكف عنك. **وإن كنت عن نصرنا غنيا تركناك منه، وإن كنت إليه محتاجا منعناك**، أو المنابذة في اليوم الرابع، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا، أنا كفيل لك بذلك على أصحابي وعلى جميع من ترى.
قال: أسيدهم أنت؟ قال: لا، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض، يجير أدناهم على أعلاهم.

فخلص رستم برؤساء أهل فارس، فقال: ما ترون؟ هل رأيتم كلاما قط أوضح ولا أعز من كلام هذا الرجل؟ قالوا: معاذ الله لك أن تميل إلى

شيء من هذا وتدع دينك لهذا الكلب ! أما ترى إلى ثيابه ! فقال : **ويحكم لا تنظروا إلى الثياب ، ولكن انظروا إلى الرأي والكلام والسيرة ، إن العرب تستخف باللباس ، والمأكل ، ويصونون الأحساب ، ليسوا مثلكم في اللباس ولا يرون فيه ما ترون .**

وأقبلوا إلى ربعي يتناولون سلاحه ، ويزهدونه فيه ، فقال لهم : هل لكم إلى أن تروني فأريكم ؟ فأخرج سيفه من خرقه ، كأنه شعلة من نار ، فقال القوم : اغمده ، فغمده ، ثم رمى ترسا ، ورموا حجفته فخرق ترسهم وسلمت حجفته ، فقال : يا أهل فارس ، **إنكم عظمتم الطعام واللباس والشراب ، وإنا صغرناهن** . ثم رجع إلى أن ينظروا إلى الأجل .

ثم بعث سعد حذيفة بن محصن ، ففعل قريبا مما فعل ربعي بن عامر ، وفي اليوم التالي طلب قائد الفرس رجلا ثالثا يكلمه ، فبعث سعد — قائد المسلمين — المغيرة بن شعبة ، فأقبل عليهم والقوم في زينتهم ، عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب ، وبسطهم على غلوة — رمية السهم — لا يصل إلى صاحبهم حتى يمشي عليهم غلوة ، وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشي ، حتى جلس معه على سريره ووسادته ، فوثبوا إليه فترتروه — حركوه — وأنزلوه وضربوه ، فقال المغيرة : كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قوما أسفه منكم ! **إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضا إلا أن يكون محاربا لصاحبه ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى ، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض ،** وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم ، فلا نصنعه ، ولم آتكم ولكن دعوتموني . اليوم علمت أن أمركم مضمحل ، وأنكم مغلوبون ، وأن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول .

فقالت السفلة : صدق والله العربي ، وقالت الدهاقين : والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه ، قاتل الله أولينا ، ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة .....)(١٩٨) .

---

(١٩٨) المرجع ذاته ج ٣ ص ٥١٩ وما بعدها .

وبعد :

فإن الناظر إلى هذه المشاهد، والمتفحص لذلك الحوار الذي دار بين جند الله وبين أئمة الكفر ليرى أناسا أهمهم أمر بعد الموت لا قبله، فهم يطلبون رضوان الله وجنته والخلاص من عذابه وناره، وليس لهم همّ قبل الموت إلا هداية الناس إلى ربهم، وإنقاذ العباد من ظلم العباد، استصغروا ما رماهم المفترون بحبه من زينة الدنيا ومباهجها، وطلبوا الآخرة وعزها، فأنالهم الله سعادة الدارين.

ولن تجد في هذه الصورة المشرقة لأولئك المجاهدين شيئا مما رماهم به أولئك الحاقدون، أعداء الله والانسان، بل إن ما ادعوه هو دأب الكفار في كل زمان ومكان؛ لايحفزهم لعمل إلا حب الدنيا وشهواتها، وإنك لتجد الفرق واضحا بين التربية الربانية المتمثلة في اولئك الفرسان وبين التربية الجاهلية التي ظهر بها قادة الفرس وكبراؤهم: جنود الله يكلمونهم عن عبادة الله وترك عبادة العباد وهم يعرضون عليهم حطام الدنيا. ولو كانوا مثل أعدائهم في طلب الدنيا لدفعهم حب الحياة إلى الرضا بما عرض عليهم من زينتها، ولكنهم طلاب آخرة، لا يجدون بغيتهم إلا في إحدى اثنتين: الشهادة في سبيل الله، أو النصر والقضاء على الفساد وهداية العباد، وتلك هي حالهم وتلك هي أقوالهم وأعمالهم، فهل يعقل ذو عقل أن تلك السيرة تكون لأناس يقاتلون من أجل المغانم والأموال؟!، لقد كان شوقهم إلى الشهادة والفوز برضوان الله يفوق كل غريزة من غرائز الإنسان في حب الحياة ومباهجها؛ أخرج النسائي عن شداد بن الهاد رضي الله عنه أن رجلا من الأعراب جاء فآمن بالنبي ﷺ ثم قال: أهاجر معك، ثم كانت غزاة غنم النبي فيها شيئا، فقسم، وقسم للأعرابي، فقال الأعرابي: ما هذا؟ فقال: قسمته لك. قال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى ههنا ــ وأشار بيده إلى حلقه ــ بسهم، فأموت فأدخل الجنة، فقال النبي ﷺ: إن تصدق الله يصدقك، فلبثوا قليلا، ثم نهضوا في قتال العدو، فأُتي به النبي محمولا، وقد أصابه السهم

حيث أشار. فقال النبي: أهوَ هو؟ قالوا: نعم، قال: صدق الله فصدقه. ثم كُفِّن في جبة النبي ﷺ، ثم قدمه فصلى عليه، فكان مما ظهر من صلاته: اللهم هذا عبدك خرج مهاجرا في سبيلك، فقتل شهيدا وأنا شهيد على ذلك.

وصحف التاريخ فياضة بمثل هذه الزهادة منهم في عرض الحياة الدنيا ومغانم الفتوحات، وهي شاهدة على أن غرضهم لم يكن شيئا سوى إعلاء كلمة الله ونشر دعوته في الأرض وحمايتها من أي عدوان.

(٣) تلك هي سيرة أولئك الأخيار في معاركهم وتلك هي أهدافهم التي صرحوا بها، وتلك هي تضحياتهم التي تهون بجانبها التضحية بالمال والمغانم، فماذا كان موقفهم من زينة الدنيا إذا أقبلت عليهم؟.

إن ذلك الوصف الذي ألصقه فريق من المبشرين والمستشرقين زورا وبهتانا بأولئك المجاهدين إنما يليق بأناس إذا رأوا الدنيا تهالكوا عليها، وتنافسوا في طلبها، وإذا جاءتهم فرحوا بها واطمأنوا لها وعضوا عليها بالنواجذ، ولم يضحوا بشيء منها قليل أو كثير. وهذه الملامح ليس شيء منها في اولئك المجاهدين من السلف الصالح، بل كانوا أبعد ما يكون عن أي منها، فقد كانوا رضوان الله عليهم إذا رأوا الدنيا زهدوا بها، ولم يقبلوا عليها وإذا أدبرت لم يأسفوا على إدبارها، وإذا أقبلت لم يفرحوا بها ولم يطمئنوا إليها، بل اعتبروها ابتلاء يستخرج به صبرهم على ترك الشهوات وطاعة الله عز وجل، وانفقوها في سبيل الله تعالى، وفي نشر دينه، وفي كل طريق من طرق الخير. وأخبار زهدهم وإنفاقهم في سبيل الله يضيق عن ذكرها هذا المقام، ولكن يمكن ذكر بعضها:

أ ـــ بعض أخبارهم في الزهد:

ـــ أخرج أحمد في الزهد عن عائشة رضي الله عنها قالت: مات أبو بكر رضي الله عنه، فما ترك دينارا ولا درهما، وكان قد أخذ قبل ذلك ماله فألقاه في بيت

المال(١٩٩).

ــ وروى ابن سعد عن عطاء بن السائب قال: لما بويع أبو بكر رضي الله عنه، أصبح وعلى ساعديه أبراد، وهو ذاهب إلى السوق، فقال عمر رضي الله عنه: أين تريد، قال: السوق، قال: تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالي؟ فقال عمر: انطلق يفرض لك أبو عبيدة. فانطلقا إلى أبي عبيدة فقال: افرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم ــ أنقصهم ــ وكسوة الشتاء والصيف، إذا أخلقت شيئا رددته وأخذت غيره(٢٠٠)، فهذه هي سيرة الخليفة الأول لرسول الله ﷺ.

ــ وأما الخليفة الثاني، فقد أخرج مالك بن أنس رضي الله عنه قال: رأيت عمر رضي الله عنه، وهو يومئذ أمير المؤمنين قد رقع بين كتفيه برقاع ثلاث لبَّد بعضها على بعض(٢٠١).

ــ وأخرج ابن سعد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان عمر يقوت نفسه وأهله، ويكتسي الحلة في الصيف، ولربما خرق الإزار حتى يرفعه، فما يبدل مكانه حتى يأتي الإبان. وما من عام يكثر فيه المال إلا كسوته فيما أرى أدنى من العام الماضي، فكلمته في ذلك حفصة رضي الله عنها فقال: إنما أكتسي من مال المسلمين وهذا يبلغني(٢٠٢)، وكان رضي الله عنه كلما عرضت عليه الدنيا تذكر قول الله تعالى: « **أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها** »(٢٠٣)، فيعزف عنها(٢٠٤).

ــ وأما عثمان بن عفان رضي الله عنه فقد أخبر عنه الحسن البصري عندما سئل عن القائلين في المسجد قال: رأيت عثمان بن عفان يقيل في المسجد،

(١٩٩) انظر: الكاندهلوي ــ حياة الصحابة ج ٢ ص ٢٩٥.

(٢٠٠) المرجع ذاته.

(٢٠١) انظر: المنذري ــ الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١١٣.

(٢٠٢) انظر: الكاندهلوي ــ حياة الصحابة ج ٢ ص ٣٠٨.

(٢٠٣) الأحقاف ــ الآية ٢٠.

(٢٠٤) الكاندهلوي ــ حياة الصحابة ج ٢ ص ٣٠٦.

وهو يومئذ خليفة، قال الرواي: ويقوم وأثر الحصى بجنبه، فيقال: هذا أمير المؤمنين، هذا أمير المؤمنين!(٢٠٥).

ـــ وأما علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد ذكر ابن كثير في البداية عنه أنه خرج بسيفه إلى السوق، فقال: من يشتري مني سيفي هذا؟ فلو كان عندي أربعة دراهم اشتري بها إزارا ما بعته(٢٠٦).

هكذا كان خلفاء الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد كانت الدنيا في قبضتهم، فهل يعقل إنسان أن هؤلاء الكرام كانوا يرسلون الجيوش طلبا للمال والغنيمة، فإذا جاءهم ما طلبوا عزفوا عنه، ولم يأخذوا منه شيئا؛ إن أهل المطامع لا يزيدهم كسب المال والجاه والمغانم إلا شرها وحرصا وبخلا.

ولم تكن هذه شيمة للخلفاء الراشدين فحسب، وإنما هي خلق اتصف به كل من نوَّر الله قلبه بالايمان من الصحابة وغيرهم:

ـــ فقد أخرج أبو نعيم في الحلية عن معمر قال: لما قدم عمر الشام تلقاه الناس وعظماء أهل الأرض. فقال عمر: أين أخي؟ قالوا: من؟ قال: أبو عبيدة، قالوا: الآن يأتيك، فلما أتاه نزل فاعتنقه، ثم دخل عليه بيته، فلم ير في بيته إلا سيفه وترسه ورحله(٢٠٧).

ـــ وهذا مصعب بن عمير رضي الله عنه، كان في مكة قبل دخوله في الإسلام أكثر الناس تنعما عند أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، ويكسوانه بأحسن الكساء، ويطيبانه بأثمن أنواع الطيب، حتى لم يكن مثله بين فتيان قريش، فلما استشهد لم يترك إلا ثوبا، كانوا إذا غطوا به رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطوا رجليه خرج رأسه، فقال رسول الله ﷺ: اجعلوا على رجليه شيئا من الأذخر(٢٠٨).

ـــ وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: خرجت في غداة شاتية جائعا،

---

(٢٠٥) المرجع ذاته ج ٢ ص ٣٠٨.
(٢٠٦) المرجع ذاته ج ٢ ص ٣١٠.
(٢٠٧) المرجع ذاته.
(٢٠٨) المرجع ذاته ج ٢ ص ٣١١،٣١٢.

وقد أوبقني البرد، فأخذت ثوبا من صوف قد كان عندنا، ثم أدخلته في عنقي، وحزمته على صدري أستدفئ به، والله ما كان في بيتي شيءٌ آكل منه، ولو كان في بيت النبي ﷺ لبلغني، .... ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فجلست إليه في المسجد، وهو مع عصابة من أصحابه، فطلع علينا مصعب ابن عمير في بردة مرقوعة بفروة، وكان أنعم غلام بمكة، وأرفهه عيشا، فلما رآه النبي ﷺ ذكر ما كان فيه من النعيم، ورأى حاله التي هو عليها، فذرفت عيناه فبكى، ثم قال رسول الله ﷺ: أنتم اليوم خير أم إذا غُدي على أحدكم بجفنة من خبز ولحم، وريح عليه بأخرى، وغدا في حلة، وراح في أخرى، وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة، قلنا: بل نحن يومئذ خير نتفرغ للعبادة، قال: بل أنتم خير(٢٠٩).

وما أكثر أخبار اولئك المجاهدين في الزهد والعزوف عن الدنيا، مع ما كان من إقبالها عليهم، حتى أُلِّفَ في هذه الأخبار مصنفات، مثل ابن المبارك الذي ألف كتابا كبيرا في الزهد ضمنه أخبارهم في ذلك.

ب ــ بعض أخبارهم في الإنفاق على الجهاد:

ذاك موقفهم من الدنيا وزينتها، إذا أقبلت عليهم أو أدبرت، كانوا زاهدين بها، يردون منها ما زاد عن حاجتهم، ويأخذون منها القليل الذي يعينهم على الطاعة والجهاد والعمل، وإن هي أدبرت لم يلحقوها لاهثين، ولم يأسوا **على ما فاتهم منها، فإذا وقع شيء منها بين أيديهم أنفقوه كله أو معظمه في سبيل الله تعالى، وأقرضوه لله قرضا حسنا ولم يكنزوه، ولم ينفقوه على شهواتهم كما يفعل عباد المال والهوى.**

أخرج ابن إسحاق عن أسماء رضي الله عنها قالت: لما خرج رسول الله ﷺ، وخرج أبو بكر رضي الله عنه، احتمل أبو بكر ماله كله، معه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف درهم، فانطلق بها معه، قالت: فدخل علينا

(٢٠٩) رواه أبو يعلى واللفظ له، والترمذي وقال عنه حسن غريب ــ انظر المنذري ــ الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١١١،١١٢.

جدي أبو قحافة، رضي الله عنه، وقد ذهب بصره فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، قالت: قلت لا يا أبت، إنه قد ترك لنا خيرا كثيرا، قالت: وأخذت أحجارا، فوضعتها في كوة في البيت، كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوبا، ثم أخذت بيده فقلت: يا أبت ضع يدك على هذا المال، قالت فوضع يده عليه فقال لا بأس، إن كان قد ترك هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم، قالت: لا والله ما ترك لنا شيئا، ولكن أردت أن أسكِّن الشيخ بذلك(٢١٠).

ومن جهة أخرى فإن اولئك الأخيار قد تعلموا من رسولهم ﷺ أن بسط الدنيا عليهم وعلى العباد، إن هو إلا فتنة يختبرون بها، وأنها ابتلاء أصعب من فتنة الضراء والمصائب، فكانوا يستقبلون بسط الدنيا والسراء بالتخوف والوجل، لا بالفرح والسرور والبطر، ذلك أن رسول الله ﷺ قال لهم: « إن مما أخاف عليكم ما يفتح الله عليكم من زهرة الدنيا وزينتها »(٢١١).

هكذا قال لهم رسول الله ﷺ، فنزّلوا قوله هذا في السويداء من قلوبهم، فكانوا يخافون من السراء أكثر من خوفهم في الضراء، ومن أخبارهم في ذلك:

ـــ عن الحسن أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أتي بفروة كسرى، فوضعت بين يديه، وفي القوم سراقة بن مالك بن جعشم رضي الله عنه، فألقى إليه سواري كسرى بن هرمز فجعلهما في يده، فبلغا منكبيه، فلما رآهما في يد سراقة قال: الحمد لله، سوارا كسرى بن هرمز في يد سراقة بن مالك بن جعشم، أعرابي من بني مدلج! ثم قال: اللهم إني قد علمت أن رسولك ﷺ كان يحب أن يصيب مالا فينفقه في سبيلك وعلى عبادك، وزويت ذلك عنه نظرا منك له وخيارا، ثم قال: اللهم إني قد علمت أن أبا بكر رضي الله

---

(٢١٠) ذكره الكاندهلوي في حياة الصحابة ج ٢ ص ١٧٣ ـــ ١٧٤ نقلا عن ابن إسحاق وابن كثير في البداية والهيثمي في مجمع الزوائد.

(٢١١) أخرجه الشيخان عن أبي سعيد الخدري ـــ انظر الكاندهلوي ـــ حياة الصحابة ج ٢ ص ٢٧٧.

عنه كان يحب أن يصيب مالا فينفقه في سبيلك وعلى عبادك، فزويت ذلك عنه نظرا منك له وخيارا، اللهم إني أعوذ بك أن يكون هذا مكرا منك بعمر، ثم تلا « **أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون** »(٢١٢).

ـــ وأخرج البخاري بسنده أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أتي بطعام وكان صائما، فقال: قتل مصعب بن عمير وهو خير مني، كفن في بردة، إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه، وقتل حمزة رضي الله عنه وهو خير مني، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط، وقد خشينا أن تكون حسناتنا قد عجلت لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام(٢١٣).

ـــ وعن أنس رضي الله عنه قال: اشتكى سلمان فعاده سعد، فرآه يبكي، فقال له سعد: ما يبكيك يا أخي؟ أليس قد صحبت رسول الله ﷺ؟ أليس؟ أليس؟ قال سلمان: ما أبكي واحدة من اثنتين، ما أبكي ضنا على الدنيا ولا كراهية الآخرة، ولكن رسول الله ﷺ عهد إلينا عهدا، ما أراني إلا قد تعديت. قال:وما عهد إليك؟ قال: عهد إلينا أنه يكفي أحدكم مثل زاد الراكب، ولا أراني إلا قد تعديت. وأما أنت يا سعد فاتق الله عند حكمك إذا حكمت، وعند قسمك إذا قسمت، وعند همك إذا هممت. قال ثابت: فبلغني أنه ما ترك إلا بضعة وعشرين درهما مع نفيقة كانت عنده(٢١٤).

هكذا كانت نظرة أولئك المجاهدين للدنيا، فهل يعقل ذو لب أن أمثال هؤلاء خرجوا من ديارهم وساحوا في الأرض طلبا لزينة الحياة الدنيا وبحثا عن الغنائم والأموال كما يقول المفترون؟! وهل يعقل أنهم كانوا يلاحقون بجهادهم أمرا كانوا يفرون منه ويخافون من فتنته؟! ما أشد هذا من تناقض يكشف عن حقد دفين!.

(٢١٢) المؤمنون ـــ الآيتان ٥٥،٥٦، والخبر موجود في حياة الصحابة ج ٢ ص ٢٧٩.

(٢١٣) المرجع ذاته ج ٢ ص ٢٨٢.

(٢١٤) رواه ابن ماجه ورواته ثقات ـــ انظر: المنذري ـــ الترغيب والترهيب ج ٤ ص ١٦٧،١٦٨.

(٤) ومن صور الواقع التي تكذب تلك الفرية المقيتة على تاريخ الجهاد الإسلامي والمجاهدين، فيما نسبوه إليهم من الأطماع الاقتصادية، أن المدنية الإسلامية التي عمت أرجاء الكرة الأرضية، من الأندلس غربا، إلى الصين شرقا، وما نتج عن تلك المدنية من خير وعمران ظلت جميعها وقفا على البلاد التي عمرها الإسلام وعلى أهلها، ولم تنقل إلى الجزيرة العربية مهد الإسلام. ومن يتجول اليوم في الجزيرة العربية لا يجد شبرا واحدا منها يحمل أثرا من آثار البلاد التي دخلها المسلمون، بينما يجدآثارهم شاهدة على أن المسلمين كانوا يعتنون بالبلاد التي يصلون إليها وبأهلها أشد العناية، ويستغلون خيراتها وفق المنهج الرباني لتعميرها ورفاهية أهلها(٢١٥).

فأين هذه الصورة النيرة لسيرة المجاهدين المسلمين مما فعله ويفعله المستعمرون الكفار في البلاد التي تقع في قبضتهم من استنزاف طاقات أهلها وخيراتهم، لتصب في بطون مصانعهم ويحققوا بها استعلاءهم على شعوب الأرض ؟!.

ثالثا ـــ المحاكمة العقلية السلمية :

وفوق ما تقدم من حقائق تشهد بها المبادئ الإسلامية والوقائع التاريخية، فإن العقل السليم يرفض مثل تلك الفرية المفضوحة على جند الرحمن، فهل من المعقول أن يضحي الانسان بحياته وحياة أسرته طمعا في مغنم دنيوي مهما كان كبيرا ؟! وهل من المعقول أن يؤدي الطمع في المغانم الدنيوية إلى تلك البطولات التي لم يشهد التاريخ لها مثيلا والنتائج المذهلة التي حققها اولئك الأبطال في مثل تلك الأزمنة القصيرة ؟! وهل من المعقول أن يتمكن أصحاب المطامع المادية من نشر دينهم وآدابه وأخلاقه وقيمه وأحكامه بين أقوام يرون أمامهم طمعا وجشعا وتهالكا على الدنيا ولذاتها ؟! إن من طبيعة الانسان أن يحقد على من يزاحمه ملكه وماله، فلا يتأثر به ولا يأخذ منه وإنما يلفظ كل ما جاء به. ثم، يا ترى! هل كان المجاهدون المسلمون يوما أكثر طمعا من

(٢١٥) انظر : عبد الله التل ـــ جذور البلاء ـــ القسم الأول ص ٢٥٨ .

أعدائهم؟! وقد علمت ما علمت من أخبار عزوفهم عن الدنيا، فلماذا لم تؤد المطامع المادية عند الأعداء إلى البطولات الخارقة التي كانت شيمة جنود الله، والنتائج المذهلة التي حققها اولئك الربانيون؟!.

إن العقل المحايد لا يقبل شيئا من تلك الترهات، ولكن الحقد يعمي ويصم، فليتعظ أبناء الإسلام وليحذروا من ورود مستنقعات الحاقدين مهما رفعوا عليه لافتات المعرفة والبحث العلمي.

هذا وقد يموه اولئك الأفاكون على بعض الناس ببعض الأمور وبعض الحوادث من سيرة الصحابة الأطهار، ليدعموا بها مفترياتهم، وفيما يلي نشير إلى بعضها ونجيب عنها:

١ ـــ تشريع الجزية في الإسلام:

ربما موَّه أولئك الماكرون بما شرعه الإسلام من ضريبة الجزية على غير المسلمين ممن عقدوا معهم عقد الذمة، ودخلوا في تبعة الدولة الإسلامية وتحت حمايتها.

وكشف هذا التمويه يكون ببيان معنى هذه الضريبة وحكمة مشروعيتها:

الجزية ضريبة على الأشخاص، وهي مشتقة من الجزاء[٢١٦]؛ لأنها تدفع مقابل شيء يلتزم به المسلمون، وهو حماية أهل الذمة ودفع العدوان عنهم، فهي تقابل ما يؤدي المسلمون من الزكاة إسهاما في نفقات الدولة التي تحميهم كما تحمي المسلمين، وتؤمن لهم العدل بلا تفرقة ولا تمييز.

فأهل الذمة في دولة الإسلام يعفون من ضريبة الدم «الجندية» ومن الزكاة، ويدفعون مقابل هذا الاعفاء جزءاً يسيرا من أموالهم، وهو الجزية، ويكون حسب طاقة كل فرد وإمكاناته المادية، حتى لا تجب على من لا طاقة عندهم ولا مال، فهي إذن أثر من آثار عقد الذمة، يقابله التزام من قبل

(٢١٦) محمد رشيد رضا ـــ تفسير المنار ج ١٠ ص ٣٤٣ ـشركة الطباعة الفنية المتحدة ١٣٤٩ هـ.

المسلمين(٢١٧).

والجزية في حقيقتها امتياز لأهل الذمة في صورة ضريبة وفي الوقت نفسه هي احتياط للمسلمين:

أما أنها امتياز لأهل الذمة، فلأن فيها دفع الاحراج عنهم، حتى لا يلتزموا بالمشاركة في معارك المسلمين مع غيرهم، فيتهم الإسلام بأنه يريد لهم الموت والاستئصال والفناء، ويلزمهم بتقديم أبنائهم لأهداف لا يؤمنون بها، وهو ما يفعله وفعله المستعمرون الكافرون في أبناء الأمم التي افترسوها، حتى كان بعضهم في الحرب العالمية يستعمل أبناء هذه الأمم في مقدمات جيوشهم وعساكرهم، متخذا إياهم وسيلة لتطهير ساحات القتال من الألغام، فتفنى الآلاف من هؤلاء قبل أن يقتل جندي واحد من جنود المستعمرين، هكذا فعل الانجليز بكثير من الفيالق الهندية المسلمة في الحرب العالمية حيث كانت الهند مستعمرة من مستعمراتهم.

وأما أنها احتياط للمسلمين فهي كذلك لأن فيها تنقية صفوف المجاهدين من غير المؤمنين، وحتى يكون الجيش كله مقاتلا في سبيل الله، لا في أي سبيل آخر. بل إن العاقل ليرى في تشريع الجزية برهانا بالغا على أن حرب المسلمين لم تكن لأهداف مادية، ولا لاستغلال الشعوب، فلو كانت كذلك لاستفاد المنتصرون من القوى البشرية التي تقع بين أيديهم، ولسخروها للقتال وتترسبوا بها وكسبوا بها كسبا أعظم من الجزية.

والإسلام في تشريع الجزية منسجم مع مبدأه الذي ذكرناه سابقا، وهو

---

(٢١٧) حسن البنا ــ السلام في الإسلام ص ٤٩. عبد العزيز العلي النعيم ــ نظام الضرائب في الإسلام ص ٣٣٠،٣٣٣ ــ طبع القاهرة ــ دار الاتحاد العربي للطباعة سنة ١٩٧٤ م، محمد محمود الصواف ــ المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام ص ١١٧، محمد رشيد رضا ــ تفسير المنار ج ١٠ ص ٣٤٧، وهبة الزحيلي ــ آثار الحرب في الإسلام ص ٧٤، محمد الغزالي ــ التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ص ١٢٢، طبع الكويت ــ نشر دار البيان.

عدم إكراه أحد على اعتناقه، أو ممارسة العبادات التي شرعها، فلم يشأ أن يجبر أهل الذمة على دفع ضريبتهم تحت عنوان الزكاة، لأن الزكاة عبادة إسلامية خاصة، وحرية الاعتقاد التي تكفل بها الإسلام للناس تحت شعار الآية الكريمة « **لا إكراه في الدين** »، تمنع أن يكره أحد من أهل الذمة على أداء عبادة خاصة بدين الإسلام، لهذا فإنه يأخذ منهم هذه الضريبة المادية تحت عنوان الجزية لا تحت عنوان الزكاة(٢١٨).

ولدينا اليوم وثائق تاريخية تنقل لنا صورا لعقود الذمة التي عقدها المسلمون مع غيرهم، وكلها تبين أن الجزية ليست إلا بدل الحماية والمنعة، فمن شارك فيها من أفرادهم أسقطوا عنه تلك الضريبة، ومن أمثلة ذلك:

أ ــ كتاب خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه، حين دخل الفرات وأوغل فيه ونصه: (بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه، إني عاهدتكم على الجزية والمنعة، على كل ذي يد .... القوي على قدر قوته، والمقل على قدر إقلاله في كل سنة، وإنك قد نقبت على قومك وإن قومك قد رضوا بك، وقد قبلت ومن معي من المسلمين ورضيت ورضي قومك، فلك الذمة والمنعة فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا حتى نمنعكم)(٢١٩).

ب ــ كتاب العهد الذي كتبه سويد بن مقرن أحد قواد عمر رضي الله عنه لرزبان وأهل دهيستان وسائر أهل جرجان ونصه: (هذا كتاب سويد بن مقرن لرزبان صول بن رزبان وأهل دهيستان وسائر أهل جرجان أن لكم الذمة وعلينا المنعة على أن عليكم من الجزاء في كل سنة على قدر طاقتكم على كل حال، ومن استعنا به منكم فله جزاؤه (جزيته) في معونته عوضا عن جزائه،

---

(٢١٨) انظر: سيد قطب ــ السلام العالمي والإسلام ص ١٧٦ ــ طبع مصر ــ الطبعة الخامسة سنة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م، ومحمد أسد ــ منهاج الإسلام في الحكم ص ١٣٧ ــ تعريب منصور محمد ماضي ــ الطبعة الثانية ١٩٦٤ م.

(٢١٩) انظر: الطبري ــ تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٣٦٧ــ٣٦٨.

وهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وما لَهم وشرائعهم، ولا يُغيَّر شيء من ذلك)[٢٢٠].

ج ـــ تقدم صنيع أبي عبيدة مع أهل حمص حيث رد لهم ما أخذ منهم من الجزية والخراج بسبب انسحابه من حمص، لينضم إلى جيوش المسلمين الأخرى استعدادا لخوض معركة فاصلة مع الروم[٢٢١].

وتقدم كذلك تصريح المفاوضين المسلمين مع رستم قائد الفرس بأن الجزية مقابل الحماية، فإذا لم يكونوا بحاجة إليها سقطت عنهم الجزية[٢٢٢].

ولا يظنَّن أحد أن هذه العهود التي كان يأخذها الصحابة والمسلمون على أنفسهم وما ضمنت من شرط الحماية مقابل ما يدفع من جزية، كان يقصد بها تطييب نفوس أهل الذمة، وإسكان غيظهم من غير تطبيق أو تنفيذ، فإن من أمعن النظر في سير الصحابة واطلع على مجاري أحوالهم، عرف من غير شك أنهم لم يكتبوا عهدا ولا ذكروا شرطا، إلا وقد عضوا عليه بالنواجذ، واجتهدوا في الوفاء به، فما كانوا ليأخذوا الجزية من أحد أو ليحتفظوا بأموالها، إلا إذا وفوا بشرطهم الذي شرطوه على أنفسهم في حماية أهل الذمة، يدل على ذلك كثير من الوقائع التاريخية، يقول أبو يوسف:

(فلما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم صاروا أشداء على عدو المسلمين، وعونا للمسلمين على أعدائهم فبعث أهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجالا من قبلهم يتجسسون الأخبار عن الروم وعن ملكهم وما يريدون أن يصنعوا، فأتى أهل كل مدينة رسلهم يخبرونهم بأن الروم قد جمعوا جمعا لم ير مثله، فأتى رؤساء أهل كل مدينة إلى الأمير الذي خلفه أبو عبيدة عليهم، فأخبروه بذلك، فكتب والي كل مدينة ممن خلفه أبو عبيدة إلى أبي عبيدة يخبره بذلك، فاشتد ذلك عليه وعلى المسلمين، فكتب أبو عبيدة إلى كل وال ممن خلفه في المدن التي صالح

---

(٢٢٠) انظر: حسن البنا ـــ السلام في الإسلام ص ٥٠.

(٢٢١) انظر ص ٥٥.

(٢٢٢) انظر ص ٩٥.

أهلها يأمرهم أن يردوا عليهم ما جبي منهم من الجزية، والخراج، وكتب إليهم أن يقولوا لهم: إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وإنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم، فلما قالوا لهم ذلك وردوا عليهم الأموال التي جبوها منهم، قالوا: ردكم الله علينا ونصركم عليهم، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا وأخذوا كل شيء بقي لنا لا يدعوا لنا شيئا(٢٢٣).

وفي رواية البلاذري قال أهل الذمة: (لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم، ونهض اليهود فقالوا: والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد، فأغلقوا الأبواب وحرسوها، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من اليهود والنصارى)(٢٢٤).

إن هذه السيرة الراشدة في معاملة أهل البلاد المفتوحة لا يوجد لها مثيل إلا في تاريخ الجهاد الإسلامي، وهي كافية لكل ذي بصيرة في كشف القناع عن وجوه أولئك المفترين الذين وجهوا افتراءاتهم إلى أولئك الشرفاء، والله سبحانه وتعالى مظهر ما يفترون.

وبهذا البيان يظهر بوضوح أن أموال الجزية لم تكن يوما هدفا لقتال المسلمين، وإنما هي تكليف على أهل الذمة الذين يصبحون من مواطني الدولة الإسلامية بقبولهم عقد الذمة، يسهمون عن طريقه في تحمل بعض الأعباء مقابل استمتاعهم بحماية دولة الإسلام وخدماتها. وليس هذا أمرا خاصا بهم، بل إن المسلمين يتحملون من هذه الأعباء أكثر من غيرهم أضعافا مضاعفة فهم الذين يسهمون في حماية الدولة بأنفسهم ودمائهم، فضلا عن الأعباء المالية الأخرى المفروضة عليهم.

---

(٢٢٣) الخراج ص ١٣٨، ١٣٩.

(٢٢٤) انظر: محمد رشيد رضا ـــ تفسير المنار ج ١٠ ص ٣٤٩ نقلا عن فتوح البلدان للبلاذري ونقل مثل ذلك عن فتوح الشام للعلامة الأزدي.

٢ ـ تشريعات الغنائم في الإسلام :

وربما شوش المستشرقون بما شرعه الإسلام للمحاربين من الغنائم، حيث جعل لهم أربعة أخماسها، وأنه بذلك جعل من دوافع اولئك المجاهدين على التضحية والفداء طلبهم للغنيمة والأموال(٢٢٥).

ولا ريب في أن كل منصف يرفض هذا الافتراء بعدما علم من بواعث الجهاد، وأنها كانت معنوية، في سبيل الله وإعلاء كلمته، وبعدما علم من واقع اولئك المقاتلين وطلبهم الشهادة ورضوان الله عز وجل، وهداية العباد.

وأما الغنائم فليس من شريعة في الدنيا، ولا نظام يحكم بردها إلى الأعداء، وبعد هذا فلكل نظام طريقة في توزيعها وصرفها. وللإسلام حكمته في كل تشريع يشرعه للناس، فهؤلاء الذين يخرجون إلى المعركة من المسلمين يضحون بدمائهم وأموالهم وأوقاتهم وأعمالهم وسبل عيشهم الأخرى، ليحموا بيضة الإسلام، ويعلوا كلمة الله في الأرض، ولم يكن لهم مرتبات خاصة، كما تفعل نظم اليوم، بل كانوا هم الذين يسهمون في إعداد السلاح ونفقات الحرب، واليوم لا يسهم الجنود في شيء فهل يتركون بعد عودتهم من جهادهم للفقر والجوع وقد ضحوا بكل شيء.

على أن الحوافز المادية عند أعدائهم كانت أكثر مما عندهم أضعافا مضاعفة، وهي عند الجيوش المعاصرة أكثر وأكثر، فلماذا لا تثمر ولم تثمر هذه الحوافز شجاعة وبطولات، لولا أن هناك سرا آخر، وبواعث أخرى أشد وأبلغ في قلوب أبطال الإسلام؟!.

وبعد هذا البيان يتضح لكل ذي بصيرة أنه لم يكن وراء تلك الافتراءات الاستشراقية والتبشيرية إلا الحقد الأعمى والمكر، وأنها لم تكن إلا أسلوبا من أساليب الأعداء في محاربة المسلمين في كل زمان. فليكن في هذا عبرة لأبناء الإسلام عندما يقرأون شيئا لأولئك الحاقدين، وليعلموا أن الذي يوجه السلاح إلى صدورهم لم يكن ليوجه إلى عقولهم، وأفكارهم وثقافتهم غير

---

(٢٢٥) انظر: مصطفى السباعي ــ السيرة النبوية ــ دروس وعبر ص ١٨٩.

السموم.

ومما يؤسف له أن كثيرا من أبناء أمتنا أصبحوا لا يروق لهم أن يأخذوا مبادئ الإسلام وسيرة سلفنا الصالح وتاريخ المسلمين وجهادهم إلا من أفواه المستشرقين ومصنفاتهم، ويجعلون ما يكتبه هؤلاء مادة للدراسة في الكليات والجامعات، ولا يكتفون بذلك، بل يؤمنون به إيمانا راسخا، ويلقنونه إخوانهم وأبناءهم مسلّماتٍ لا تحتمل النقاش، وما دروا أنهم بذلك يتقلدون ويقلدون أبناء الأمة أسلحة فاسدة ترتد إلى صدورهم ونحورهم كتلك الأسلحة المادية الفاسدة التي جعلوها بين أيدينا في حربنا الأولى مع اليهود في الأرض المقدسة، فليت إخواننا يفيقون فيعرفون عدوهم وعدو أمتهم وعدو الانسانية، وياليتهم يرجعون إلى منبع قوتهم الذي ابتغى اعداؤهم إقصاءهم عن حياضه؛ يقول أبو الأعلى المودودي عندما سئل عن هذا الموضوع:

(هذا من تقلبات الدهر وعجائب أمره! لقد مر على المسيحين في أوروبا حين من الدهر كانوا يشدون الرحال إلى الأندلس، ليتعلموا الكتاب المقدس من علماء المسلمين. أما الآن فقد انقلب الأمر رأسا على عقب، حيث أصبح المسلمون ـــ وأسفاه ـــ يرجعون إلى أهل الغرب يسألونهم: ما الإسلام؟ وما تاريخه وما حضارته؟ ويستوردونهم لتدريس التاريخ الإسلامي مع أنهم ـــ أعني أهل الغرب ـــ قوم لا يسمحون لأحد إذا لم يكن من أتباع دينهم بأن يتدخل فيما يتعلق بدينهم وتاريخه، ولا في أتفه الأمور. ولقد نشر اليهود موسوعتهم « Jewish Encyclopaedia » وما فيها مقال واحد كتبه أحد المسيحيين، فضلا على أن يكتبه أحد من المسلمين، وقد قاموا أنفسهم بترجمة التوراة، ويربأون عن أن يمسوا الترجمة المسيحية!.

وعلى العكس من هذا فإن علماءهم يكتبون الكتب والمقالات عن الإسلام ويتلقاها المسلمون بكل ترحيب، ويعترفون بأن من حقهم أن ينشروا باسم التحقيق العلمي ما شاؤوا من الكتب والمقالات عن ديننا وفقهنا وحضارتنا وتاريخ أسلافنا .....

إن وضعا كهذا لا يجوز ولا ينبغي أن يبقى في دولة إسلامية، إذ من

باب التناقض أن تكون الدولة إسلامية ويكون الدين فيها غريبا، والمسلمون يتامى، ولتهنأ بهذا الوضع المتناقض دول المسلمين اللاإسلامية !!!)[٢٢٦].

وتصديقا لكلام الأستاذ المودودي نثبت هنا ما جاء في تقرير روستو المستشار الأول لجونسون، رئيس الولايات المتحدة الأسبق، والذي قدمه إليه سنة ١٩٦٤ م؛ فقد جاء فيه: (لقد تحرر المواطن العربي حقا من سيطرة الغرب السياسية، لكنه لم يستطع التحرر من سيطرة الغرب الحضارية، إن ثروته البترولية تصنع وتسوق بالعقول الغربية والأساليب الغربية والآلة الغربية. إن الجيوش العربية التي هي مصدر غروره القومي تستعمل السلاح الغربي، وترتدي البزة الغربية بل تسير على أنغام الموسيقى الغربية، حتى إن ثورته على الغرب مستمدة من المبادئ والقيم والمفاهيم التي تعلمها من الغرب! حتى إن معرفته بتاريخه وحضارته وتراثه تعزى إلى المثقفين الغربيين)[٢٢٧].

* * *

(٢٢٦) من كتاب الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة ص ٢٧١ ــ طبع الكويت دار القلم ــ الطبعة الأولى ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م.

(٢٢٧) محمد الصواف ــ معركة الإسلام ص ١٨٣، سعد جمعة ــ معركة المصير ص ٨٧.

المطلب الرابع

رد فعل فكري حول غاية الجهاد وتصحيحه

لو اقتصر الأمر عند صنيع المبشرين والمستشرقين في إثارة الشبهات حول غايات الجهاد، لما أثار ذلك العجب، فماذا يأمل الانسان من عدوه؟!، ولكن العجب كل العجب من بعض علماء المسلمين الذين اغتروا بتزوير أولئك، وانخدعوا بتلك الصورة المموهة التي رسمها اولئك الخبثاء للجهاد، وحملوها على محمل الجد، يظنون أن الذين رسموها وسطروها قد صدروا في ذلك عن قناعة ذاتية. فقام هؤلاء العلماء يردون تلك الشبهة، ويدافعون عن سمعة الإسلام، فإذا بهم يغفلون عن طبيعة الإسلام وأهداف الدعوة الإسلامية، من أجل أن يمسحوا ذلك التمويه الذي عملته الأيدي الحاقدة، فمسحوا معه شيئا من حقائق الدعوة، فوقعوا بذلك في المصيدة التي نصبها لهم المستشرقون والمبشرون بتلك التشويهات التي أثاروها حول الجهاد وحكمة مشروعيته وحققوا بذلك مقصدهم في دفع أبناء الإسلام أنفسهم لتحريف مبادئه ومفاهيمه(٢٢٨).

---

(٢٢٨) من الأساليب الخبيثة التي استعملها أعداء الإسلام في تحريف الإسلام وتغريب مفاهيمه، استدراج العلماء المسلمين الذين لهم التأثير الفكري على أبناء جلدتهم للكلام في النقاط المعينة من نظم الشريعة ومفاهيمها، التي يريد الماكرون تحريفها، ويستثيرونهم للدفاع عنها بأسلوب يحاولون به محو الفكرة السيئة بصورة تتسم بردود الفعل المعاكسة، فيتنازلون عن بعض حقائق الدين وهم منشغلون بتلك الردود وبذلك يؤول الأمر إلى تحريف نصوص القرآن والحديث والميل بها إلى ما يوافق العادات الغربية السائدة. وهذا هو الأسلوب الذي استعملوه في تحريف المفاهيم الإسلامية حول المرأة، لتحقيق النتيجة التي وقعت بالفعل عند بعض المتساهلين من علماء المسلمين، وهي التنازل عن بعض المبادئ الإسلامية المتعلقة بمركز المرأة، والوصول بها إلى صورة شبيهة =

ذلك أن هذه الفئة من العلماء قامت تعتذر للعدو المنتصر، وتدعي أن الجهاد في الإسلام لم يشرع إلا للدفاع عندما يعتدى على المسلمين أو على أرضهم، وأن معارك الإسلام جميعها لم تتخط هذه الغاية، وأخذوا يلتمسون المبررات لكل معركة خاضها جند الله، ويقصرون هدفها على دفع الاعتداء الذي كان يقع على المسلمين في كل مرة[229].

= بالصورة التي عليها المرأة الغربية. انظر تفصيل هذا الأسلوب الماكر وغيره عند محمد محمد حسين ـــ الإسلام والحضارة الغربية ص ١٣٨ وما بعدها ـــ طبع بيروت ـــ مؤسسة الرسالة الطبعة الرابعة ١٩٨١ م.

وهذه هي الطريقة التي استعملوها في تحريف غايات الجهاد: قاموا يهاجمون الجهاد في الإسلام ويرسمون له صورة قبيحة مشوهة فكسبوا من ذلك ربحين لهم: الأول: تضليل فريق من المثقفين وأنصاف المثقفين بجعلهم يتبنون هذا التحريف المتعمد، والثاني: دفع علماء المسلمين للتنازل عن الأهداف الحقيقية للجهاد وتحريف تلك الأهداف بما يتفق في النهاية مع الموقف الذي يتمنى أولئك الخبثاء أن يكون الإسلام عليه.

(٢٢٩) وقع في هذا الفهم الخاطئ لغاية الجهاد في الإسلام ومبرراته كثير من الكتاب المحدثين، ولعل معظمهم صدروا فيما وقعوا فيه عن حسن نية؛ فقد استدرجهم أولئك الماكرون من المستشرقين والمبشرين بما أثاروه حول الجهاد من الافتراءات مما سبق بيانه وغيره، إلى ما وقعوا فيه من التفريط، وساعد في ذلك جهل كثير منهم بطبيعة الإسلام وأهداف الدعوة، وبطبيعة الكفر وأهله في مواقفهم من المؤمنين، وعدم مقدرتهم على الانسلاخ من ضغط الواقع المر الذي آل إليه المسلمون في هذه الأيام. وإنه وإن شفعت لهم حسن نيتهم فيما خاضوا فيه وادعوه فإن إقدامهم على التقول في دين الله من غير استقصاء للنصوص وواقع الدعوة الإسلامية وواقع الكفار ومواقفهم منها، أمر خطير ما كان ليقدم عليه إنسان يحتاط لدينه.

على أن الله سبحانه وتعالى الذي تعهد بحفظ دينه من تفريط المتساهلين وإفراط المغالين، وافتراءات الحاقدين، قد يسر لهذه القضية ـــ قضية الجهاد ومبرراته ـــ من بيَّنها بيانا شافيا فيما يتفق مع طبيعة الدعوة الربانية الماثلة في كتاب الله الكريم، وفي حديث رسوله المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وفي سيرة السلف الكرام، وكان في مقدمة هؤلاء المجاهدان: سيد قطب وأبو الأعلى المودودي، ولطالب المزيد أن يرجع إلى تفسير « في ظلال =

ولقد أسهم في إظهار هذه الروح الانهزامية ضغط الواقع المرير الذي آل إليه المسلمون في أنحاء الأرض هذه الأيام، من هزيمة وذلة وانقسام واختلاف. فاستكثروا على أنفسهم أن يصرحوا بهدف الإسلام في تحرير الانسان من العبودية للعباد، وبهدف الجهاد في تخليص الناس من ظلم الطواغيت، وخافوا — كما يقول بعضهم — من إعطاء المستمسك للعدو على قسوة الجهاد والمجاهدين.

ولم يكتفوا بذلك بل أخذوا على عاتقهم مهمة التنقيب عن الأدلة التي ادعوا أنها تؤيد وجهة نظرهم، واستشهدوا ببعض الآيات الكريمة مثل قوله تعالى: « **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** »(٢٣٠)، وقوله تعالى: « **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا** »(٢٣١)، وقوله تعالى: « **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله** »(٢٣٢)، وأمثال هذه الآيات مما يدعو إلى عدم الاعتداء على غير المعتدين.

على أن من الأمانة العلمية أن نذكر أن بعض هذا الفريق من العلماء المحدثين أخذ يتوسع في معنى الدفاع الذي جعله غاية للجهاد الإسلامي، ورأى أن ذلك يعني فوق دفع العدوان إزالة العوائق والعقبات من طريق الدعوة الإسلامية؛ بحيث يوافق العدو الكافر على السماح للدعاة المسلمين بإيصال دعوة الإسلام إلى الناس الذين يخضعون لحكم ذلك العدو، فمن منع نشر الدعوة وتحرش بالدعاة وآذاهم ووضع العراقيل أمامهم استحق هذا القتال، ويكون هذا مبررا مشروعا لاعلان الجهاد عليه(٢٣٣).

= القرآن » عند تفسير أول سورة براءة، وإلى كتاب « الجهاد في سبيل الله » لأبي الأعلى المودودي.

(٢٣٠) البقرة — الآية ٢٥٦.

(٢٣١) البقرة — الآية ١٩٠.

(٢٣٢) الأنفال — الآية ٦١.

(٢٣٣) انظر: عبد الله بن زيد آل محمود — الجهاد المشروع في الإسلام ج ٢ ص ٣٨ وما بعدها — طبع بيروت — مؤسسة الرسالة — الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م، وانظر محمد عزة دروزة — الجهاد في سبيل الله في =

ومع أن هذا التوسع في تفسير الدفاع هو في اتجاه الحق والصواب، ولكنه غير كاف في التعبير عن حقيقة الجهاد وأهدافه، وإذا كان لا بد من اطلاق مصطلح الدفاعي على القتال الإسلامي، فلا بد من توسيع معناه ليشمل الدفاع عن الانسان وذلك بكف أيدي الظالمين عن الاعتداء على أي مقوم من مقوماته، من عقل وعاطفة ومال وحرية وغير ذلك، فحيثما يقع البغي والعدوان على أي مقوم من مقومات الانسانية الفاضلة، كحرية العقيدة، وحرية العبادة والعدل في الحكم والعدل في الجزاء والعدل في توزيع المغانم والمغارم والحقوق والواجبات، فالإسلام حينئذ لا يرضى بسلام يقوم على هذا العدوان فليس السلام في الإسلام إلا تحقيق الخير والعدل على النهج الذي رسمه الله للعباد(٢٣٤).

وبهذا المعنى يمكن أن يقال إن الدفاع عن سلام الانسان وأمنه وطمأنينته هي أهداف الجهاد في الإسلام؛ ويقتضي ذلك أن يجعل الحكم والعلو لكلمة الله حتى تكون هي العليا على كل حكم، ويتحقق ذلك عندما يتخلى الكفار عن استعباد شعوبهم، وتضليلهم والتغرير بهم وظلمهم بأحكام الجهل والضلال، وبأن توضع السلطة في أيدي جند الرحمن الذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا، فيخضع الناس كلهم لأحكام الله التي يريد أن تسود العباد في هذه الدنيا، بغض النظر عن عقائدهم التي يدعو إلى عدم الإكراه فيها كما تقدم.

أما الادعاء بأن الجهاد لا يكون مشروعا إلا للدفاع عن المسلمين والأرض الإسلامية فيجاب عنه بما يلي:

أولا ــ هذا الفهم الضيق لمبررات الجهاد يناقض حقيقة الدعوة الإسلامية وقصد الله عز وجل من تنزيل آخر رسالاته لأهل الأرض، وهي رسالة الإسلام؛ ذلك أن هذه الرسالة تبتغي في جملة أهدافها جعل العبودية لله وحده في هذه الأرض، والقضاء على عبودية البشر لغير الله عز وجل، وهذه الغاية

= القرآن والحديث ص ٥ ــ طبع دمشق ــ دار اليقظة ومحمد موصلي سنة ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م.

(٢٣٤) سيد قطب ــ في ظلال القرآن ــ المجلد الخامس ص ٦٠٤.

تقتضي الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأنظمتها وأوضاعها. وهذا أمر لا يتحقق بمجرد الكلمة، لأن أعداء هذه الكلمة لا يكتفون في مقابلتها بالحجة والاقناع، وإنما يبتغون تحطيم الناطقين بها بالقوة والسلاح، ويحولون دون وصولها إلى الناس.

ومن جهة أخرى فإن من أهداف الدعوة تخليص العباد من الظلم الذي يقع على كواهلهم بتطبيق شرائع البشر وأحكامهم الظالمة، والقضاء على الظروف الضاغطة التي يصنعها الطواغيت في الأرض، بما ينشرون من أحكام وقيم وأخلاق ومناهج. ودعوى أن الجهاد شرع للدفاع فقط هي من حيث النتيجة حصر لفاعلية الدعوة الإسلامية في بقعة من الأرض، وكأن مقصد الرب سبحانه من إنزال رسالة الإسلام هداية أناس معينين دون غيرهم، وتخليص أناس معينين من الظلم، وعدم الالتفات إلى بقية العباد؛ لأن هذه الرسالة لن تصل بصورتها الربانية إلى الأقوام التي أحاطها حكامها بسياج من القوة، لينفردوا بتضليلها وإبعادها عن الحقيقة، وإبعاد الحقيقة عنها، مع أنه لايصح أبدا من مسلم أن يدعي أن رسالة الإسلام أنزلت لقوم معينين وأرض معينة.

ثانيا ــ ومن جهة أخرى فإن الله وهو أعلم العالمين قد قرر بحزم ولا معقب على حكمه، أنه لا يمكن التعايش الدائم بين المعسكر الإسلامي، ومعسكرات الكفر؛ فقد أخبرنا الله عز وجل عن حقيقة نوايا المشركين تجاه المسلمين فقال تعالى: « **ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا** »(٢٣٥)، كما أخبرنا عن حقيقة نوايا أهل الكتاب بقوله تعالى: « **ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق** »(٢٣٦)، وقال أيضا: « **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم** »(٢٣٧)، وقال أيضا: « **ما يود**

(٢٣٥) البقرة ــ الآية ٢١٧.

(٢٣٦) البقرة ــ الآية ١٠٩.

(٢٣٧) البقرة ــ الآية ١٢٠.

الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم »(٢٣٨)، وقال أيضا: « **ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة** »(٢٣٩)، وقال: « **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل والله أعلم بأعدائكم** »(٢٤٠)، وقال سبحانه: « **ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء** »(٢٤١).

إن تلك الدعوى تدل على جهل بطبيعة الشر وأهله، وهو جهل لا يعذر أهله؛ لأن الله سبحانه بين لهم في مثل تلك الآيات هذه الطبيعة في الشر، وأبدأ في ذلك وأعاد سبحانه حتى يعرف المؤمنون الموقف الذي يجب عليهم أن يقفوه إزاء أهل الكفر والباطل، يقول سيد قطب: (إن الله سبحانه يعلم أن هذا أمر تكرهه الملوك، ويعلم أن لا بد لأصحاب السلطان أن يقاوموه لأنه طريق غير طريقهم، ومنهج غير منهجهم، ليس بالأمس فقط ولكن اليوم وغدا وفي كل أرض وفي كل جيل، وإن الله سبحانه يعلم أن الشر متبجح، ولا يمكن أن يكون منصفا، ولا يمكن أن يدع الخير ينمو مهما يسلك هذا الخير من طرق سلمية موادعة، فإن مجرد نمو الخير يحمل الخطورة على الشر، ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل، ولا بد أن يجنح الشر إلى العدوان، ولا بد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولة قتل الحق وخنقه بالقوة، هذه جبلة وليست ملابسة وقتية، هذه فطرة وليست حالة طارئة، ومن ثم لا بد من الجهاد، لا بد منه في كل صورة، ولا بد أن يبدأ في عالم الضمير ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع والشهود، ولا بد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح ولا بد من لقاء الباطل المتترس بالعدد بالحق المتوشح بالعدة، وإلا كان الأمر إنتحارا أو كان هزلا لا يليق بالمؤمنين)(٢٤٢).

---

(٢٣٨) البقرة ــ الآية ١٠٥.

(٢٣٩) النساء ــ الآية ١٠٢.

(٢٤٠) النساء ــ الآيتان ٤٤، ٤٥.

(٢٤١) النساء ــ الآية ٨٩.

(٢٤٢) في ظلال القرآن ــ المجلد الثاني ص ٤٩٧.

فإذا كان ذلك هو حال المعسكرات الكافرة، كما أخبر عنها الله تعالى، وهو أعلم بما خلق، فكيف يجوز أن يدعى بأن الجهاد في الإسلام لم يشرع إلا عندما يهجم أعداء الإسلام على دار الإسلام أو على المسلمين، مع أن الله أخبرنا أنهم فاعلون ذلك إن عاجلا أو آجلا وأنهم لا يسالمون إلا وفي نيتهم منازلة المسلمين عندما تتاح لهم الفرص والظروف؛ يؤيد هذا ما أخبر به عز وجل من أن المشركين لا عهد لهم، ولا أيمان، فقال سبحانه: « **كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله** ... » إلى قوله تعالى: « **فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون** »(٢٤٣).

ثالثا ــ ومن جهة ثالثة فإن تلك الدعوى تناقض الواقع الذي يمثل الفهم الصحيح لمبادئ الإسلام وأهدافه، وهو واقع الدولة الإسلامية الأولى، وواقع الخلفاء الراشدين المهديين؛ ذلك أن قائد الدعوة عليه الصلاة والسلام ما كان يقنع برفع راية الإسلام على بقعة من الأرض، ولو صح ما يدعيه هؤلاء لاكتفى عليه الصلاة والسلام بفتح مكة، وتأديب كفار قريش، ولو صح ما يدعي هؤلاء لما كانت الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء حتى عمت دعوة الله جميع الأرض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا. والمتتبع لتاريخ تلك الفتوحات يتضح له أن المبرر الأول والأصيل لجهاد السلف كان دائما تحرير الإنسان من الخضوع لغير الله في الأحكام والمناهج، ولو لم يكن اعتداء مباشر على ديار المسلمين وأهلها.

ومع أن أصحاب تلك الدعوى يلتمسون لكل معركة خاضها جند الله في عهد الرسول والعهود التالية، مبررا دفاعيا، ولكن تلك المبررات مع ما فيها من البعد، إلا أنها غير كافية لتفسير جهاد السلف والنتائج الواقعية التي سعوا للوصول إليها، ووصلوا إليها بالفعل، وهي إخضاع جميع من استطاعوا من أهل الكفر لدولة الإسلام وعدل الإسلام ومناهج الإسلام من غير اعتداء على حرية العقائد إذا ما التزم أصحابها أصول العدل الذي يريده الإسلام وكفوا عن الصد عن سبيل الله تعالى.

---

(٢٤٣) التوبة ــ الآيات ٧ــ١٢.

ولو كانت تلك الأعذار التي اعتذروا بها عن معارك الإسلام صحيحة، لاكتفى الرسول والخلفاء من بعده والتابعون من بعدهم بتأديب الكفار، وأخذ العهود عليهم والمواثيق أن لا يعودوا إلى العدوان، وأن لا يتصدوا للدعاة. ولما دخلوا بلادهم ونصبوا عليهم الولاة والأمراء، ولما أخذوهم بأحكام الإسلام الدنيوية، ولما تدخلوا في شئونهم، ولتركوهم ينظمون علاقاتهم الاجتماعية كما يشاءون مهما كان فيها من الظلم والفساد. ولكن شيئا من هذا لم يحدث، ولم يكتفوا بذلك، حتى خضع الطواغيت في الشرق والغرب لكلمة الله، وإن لم يؤمن كثير منهم بعقيدة الإسلام.

ولقد كان قادة الجيوش الإسلامية وأفرادها يعرفون هذه الحقيقة، فعندما طلب قائد الجيوش الفارسية رستم رسلا من جنود الإسلام ليفاوضهم ويتعرف على أهدافهم من جهادهم الذي شنوه على الفرس، أرسل له المسلمون ثلاثة من المجاهدين في ثلاثة أيام متوالية، وكان يسأل كل يوم واحداً منهم، وهم ربعي ابن عامر، وحذيفة بن محصن، والمغيرة بن شعبة، فأجابوه جوابا واحدا عندما سألهم عن سبب مجيئهم، فقالوا: (الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .... فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه، فمن قبله منا قبلنا منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه، ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر)(٢٤٤).

والذي يتدبر الحوار الذي دار بين دعاة الإسلام من جهة، وبين كسرى ورستم من جهة أخرى لا يجد في كلام الدعاة ما يشير إلى أنهم جاءوا ليدافعوا عن أنفسهم وأرضهم ولا ما يشير إلى أنهم جاءوا ليؤدبوا قوما اعتدوا عليهم ثم يرجعوا عنهم، ويتركوا الطغاة يعيثون في أرض الله فسادا، والمظلومين يكتوون بنار الظلم والجور، مع أن رستم عرض عليهم أن يعطيهم ويحسن إليهم، وإنما اتفق أولهم مع آخرهم على أنهم جاءوا لإنقاذ أهل فارس من ظلم بعضهم

---

(٢٤٤) انظر تفصيلات ما دار من الحوار بين المفاوضين المسلمين وبين قادة الفرس في المطلب السابق.

لبعض ونشر عدالة الإسلام فوق أرض الله التي وضعت بين أيديهم، فلم يحفظوا النعمة ولم يؤدوا الأمانة فيها. وهم في الوقت نفسه لم يناقشوا الفرس في عبادة النيران ولكنهم أخبروهم ــ كما قال ربعي ــ أنهم جاءوا ليخرجوهم من عبادة بعضهم لبعض ومن ضيق النظم الجاهلية ونكدها إلى سعة الإسلام وعدله(٢٤٥).

رابعا ــ وكما تناقض تلك الدعوى واقع الدولة الإسلامية وفهم الصحابة الكرام للجهاد ومبرراته، فإنها تتناقض مع إجماع علماء المسلمين من مفسرين وفقهاء وغيرهم، فإنهم متفقون على وجوب الجهاد وكونه فرض كفاية، وأنه لايخرج المسلمون من هذا الواجب حتى يقاتلوا الكفار ولو مرة واحدة في كل عام، إن كان ذلك في وسعهم، سواء حصل اعتداء من الكفار على ديار الإسلام أو لم يحصل. ولكن إذا وقع العدوان تحول الفرض من فرض كفائي إلى فرض عيني على كل مسلم(٢٤٦).

ولو كان الجهاد في الإسلام لم يشرع إلا للدفاع عندما يقع عدوان لما كان لإجماع الفقهاء على أن الجهاد فرض كفاية على المسلمين عند عدم الاعتداء أي معنى، لأن معنى كون الجهاد دفاعيا أن قتال الكفار الذين لم يشنوا حربا على المسلمين يكون محرما، ولكنك إذا رجعت إلى أي كتاب فقهي لوجدت صاحبه يصرح بأن الجهاد يكون في هذه الحال فرض كفاية إذا قام به بعض المسلمين سقط عن بقيتهم، وإن تركوه أثموا جميعا، بل صرح بعض الفقهاء بأن جهاد الكفار فرض على أمة الإسلام وإن لم تكن البداية منهم، لأن الأدلة الموجبة له لم تقيد الوجوب ببداءتهم(٢٤٧).

---

(٢٤٥) انظر: محمد الغزالي ــ التعصب والتسامح ص ١١٥.

(٢٤٦) انظر: ابن عابدين ــ الحاشية ج ٣ ص ٣٠٢،٣٠٣ ــ المطبعة العثمانية، والجصاص ــ أحكام القرآن ج ٣ ص ١٣٩،١٤٠ ــ طبع مصر ــ المطبعة البهية المصرية سنة ١٣٤٧ هـ، والكمال ابن الهمام ــ فتح القدير ج ٤ ص ٢٨ ــ طبع مصر مطبعة مصطفى محمد.

(٢٤٧) انظر المرغيناني والكمال بن الهمام والبابرتي وسعدي جلبي ــ الهداية وفتح القدير وشرح العناية وحاشية سعدي جلبي ج ٤ ص ٢٨٢.

هذا وقد حاول بعض الكتاب المعاصرين ممن تعرضوا للكتابة عن الأحكام الإسلامية التي تنظم علاقة الدولة المسلمة بالدول الكافرة، أن يلتمسوا لأصحاب تلك الدعوى آراءً لبعض فقهاء المسلمين القدامى، تتبنى هذه الدعوى وتؤيدها، وذلك بتأويل بعض العبارات المأثورة عنهم تأويلا ظاهر البطلان، من ذلك:

ما نقله بعضهم عن سفيان الثوري من أنه لا يرى القتال مشروعا إلا إذا كان دفاعا عن المسلمين وأرضهم(٢٤٨)، والعجيب أن الذين نسبوا إليه هذا الرأي استدلوا عليه بكلام عن الإمام الثوري يدل على عكس ما يريدون نسبته إليه؛ فقد ذكروا أن الإمام الثوري لا يرى مشروعية غير حرب الدفاع من أنواع الجهاد، بدليل أنه يرى أن الجهاد لا يكون فرضا إلا في حالة الدفاع، وأما في غير حالة الدفاع فيكون عنده مندوبا، وليس فرضا(٢٤٩)؛ فعلى فرض صحة هذا النقل عن الإمام الثوري فإنه يدل على أن الجهاد مشروع في غير أحوال الدفاع، وليس أدل على هذه المشروعية من القول بالندب، إذ لو كان الأمر كما يقولون لكان القتال في غير الدفاع حراما عند الثوري، ولكنهم صرحوا بأنفسهم أنه يقول بالندب، فأين الإمام الثوري مما ذهبوا إليه، ويريدون إلصاقه به رحمه الله تعالى.

كذلك ادعى بعضهم أن ما ذهبوا إليه قال به شيخ الإسلام ابن تيمية(٢٥٠)، واستدلوا بكلام نقلوه من بعض كتبه لا يستنتج — عند

---

(٢٤٨) انظر: ظافر القاسمي — الجهاد والحقوق الدولية في الإسلام ص ١٧٥، وقد نقل هذا الرأي عن نجيب الأرمنازي الذي زعم أن الإمام الثوري أنكر فريضة القتال ابتداءً، وأشبه في ذلك أحدث القواعد الدولية في تحريم حرب الاعتداء، وانظر محسن الشيشكلي — مذكرات الثقافة الإسلامية ص ٤٧٢ مطبعة جامعة الكويت.

(٢٤٩) انظر: القاسمي — الجهاد والحقوق الدولية في الإسلام ص ٢٥٨.

(٢٥٠) انظر: مجيد خدوري — القانون الدولي الإسلامي «كتاب السير للشيباني» ص ٧٥ — طبع بيروت — الدار المتحدة للنشر — الطبعة الأولى سنة ١٩٧٥ م وانظر القاسمي — الجهاد والحقوق الدولية في الإسلام ص ١٧٥.

التدقيق ــ منه شيء مما ذهبوا إليه، بل هو كبقية الفقهاء في هذه المسألة ولم يخالفهم، من هؤلاء المستشرق مجيد خدوري الذي حقق كتاب السير لمحمد ابن الحسن الشيباني وقدم له مقدمة طويلة، حاول فيها مرارا أن يوحي إلى القارئ أن الأحكام الإسلامية في مجال العلاقات الدولية لم تكن إلا من صنع الفقهاء وضعوها للظروف، وبدلوها بتغير الظروف والواقع فقد قال: (... في هذه الأوضاع الجديدة المتغيرة أخذ الفقهاء يعودون إلى بحث قضية الجهاد ويتساءلون إذا كان الجهاد ضد الكفار أمرا يبرره كفر الجماعة الغازية أو كذلك عدوانهم على المسلمين. وأخذ المبدأ القائل أن الجهاد واجب جماعي مفروض على الجماعة لمحاربة الكفار « **حيث وجدتموهم** » يفقد شيئا من مضمونه! وها هو ابن تيمية المعروف بتمسكه الشديد بالسنة يدرك عدم جدوى استمرار محاربة الكفر في الوقت الذي كان فيه الأعداء من الكفار يهددون الإسلام قرب أسواره، ولكنه يعود فيجابه الحقيقة بإعادة تفسير الجهاد على أنه حرب دفاعية ينبغي أن تشن ضد الكفار عندما يهددون أمن الإسلام، ويوضح ابن تيمية قوله إن الكفار الذين لا يحاولون مهاجمة دار الإسلام فإن الإسلام لا يفرض عليهم فرضا ويتابع قوله « إن الكافر إذا قتل لأنه لم يعتنق الإسلام، فإن قتله هذا يعد أبشع إكراه في الدين » وهو يخالف القرآن الكريم « **لا إكراه في الدين** » غير أن الكفار الذين يهاجمون الإسلام يكونون في وضع يختلف عن هذا اختلافا كليا)(٢٥١).

ولقد رجعت إلى كتاب « السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية » لابن تيمية وهو المصدر الذي أحال إليه الكاتب فيما نسبه إلى شيخ الإسلام فوجدت أن الكاتب حمل ابن تيمية ما لم يحمل وأساء فهم عبارته والله أعلم بقصده، ولكن لا بد لأبناء الأمة الإسلامية أن يحذروا من أن يأخذوا صورة سلفهم من غير مصادرهم الأصلية وهي أخبارهم الصادقة ومؤلفاتهم التي ثبتت نسبتها إليهم، وفيما يلي عبارة ابن تيمية في الكتاب المذكور:

---

(٢٥١) انظر مقدمة القانون الدولي الإسلامي « كتاب السير للشيباني » ص ٧٥.

(وإذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد، **ومقصوده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فمن منع هذا قوتل باتفاق المسلمين**، وأما من لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة، كالنساء والصبيان والراهب والشيخ الكبير والأعمى والزمن ــ صاحب العاهة المستديمة ــ ونحوهم، فلا يقتل عند جمهور العلماء إلا أن يقاتل بقوله أو فعله، وإن كان بعضهم يرى إباحة قتل الجميع لمجرد الكفر إلا النساء والصبيان لكونهم مالا للمسلمين، والأول هو الصواب، لأن القتال هو لمن يقاتلنا **إذا أردنا إظهار دين الله** ...)[٢٥٢].

ويقول في موضع آخر من الكتاب نفسه: (**فمن لم يمنع المسلمين من إقامة دين الله لم تكن مضرة كفره إلا على نفسه**)[٢٥٣]، ويقول أيضا: (**فأصل هذا هو جهاد الكفار، أعداء الله ورسوله، فكل من بلغته دعوة رسول الله ﷺ إلى دين الله الذي بعثه به، فلم يستجب له، فإنه يجب قتاله « حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »**)[٢٥٤].

هذه هي عبارات ابن تيمية التي استند إليها الكاتب فيما نسبه إليه من أنه « عاد بها ليجابه الحقيقة ويفسر الجهاد بأنه حرب دفاعية »، وهو استنتاج جائر لا يمكن أن يفهم من تلك العبارات على أي وجه من وجوه اللغة العربية، إذا أخذت بمجموعها ولم يفصل بعضها عن بعض وهو الواجب ومقتضى الأمانة العلمية، فإن ابن تيمية كغيره من علماء المسلمين ــ وقد نقل اتفاقهم على هذا ــ يصرح بأن مقصود القتال أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، وأما قوله « إن القتال لمن يقاتلنا » فلا يجوز أخذه مجردا عن الحال التي قيده بها، والشرط الذي قرنه به، فإن كف القتال عن غير المقاتلين يكون أثناء المعركة؛ فيقاتل من يحمل السلاح في وجه الدعاة ولا يؤذَى أشخاص ابتعدوا عن ساحة المعركة، ولم يصدوا عن سبيل الله، ولم

---

(٢٥٢) صفحة ١١٩، مؤسسة مكة للطباعة والاعلام ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م.

(٢٥٣) ص ١٢٠.

(٢٥٤) ص ١١٤.

يمنعوا إظهار دين الله. وهذا أمر راجح عند علماء المسلمين، لما ورد فيه من الأحاديث الكثيرة، والتي ذكرنا طائفة منها في المطلب الثاني من هذا البحث.
وكل إنسان يفهم لغة العرب يعرف من كلام شيخ الإسلام أن مقصوده من تلك العبارة: أن المسلمين يتقدمون إلى الكفار بدين الله، يبتغون إظهاره في الأرض؛ إما بالدخول فيه وفي إخوة الإسلام، وإما بقبول أحكامه العادلة تحت شعار عقد الذمة. وقبل ذلك وفي أول الفصل الذي عقده ابن تيمية لهذا الموضوع صرح بهذا تصريحا لا يقبل أي تأويل آخر عندما قال: (فكل من بلغته دعوة رسول الله ﷺ إلى دين الله الذي بعثه به، فلم يستجب له فإنه يجب قتاله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله).

وبما تقدم من البيان يتبين أن ابن تيمية لم يخرج عن إجماع العلماء في وجوب الجهاد، وعدم ربط هذا الوجوب بابتداء عدوان من الكفار، وأن القضية التي ربطها بعدم الاعتداء تختص بمن لا يقاتل من الناس، أثناء وقوع القتال بالفعل.

كذلك ادعى الذين قصروا مشروعية الجهاد على حالة الدفاع أن هذا هو رأي ابن الصلاح، واستدلوا بهذه العبارات التي وردت في فتاوي الشيخ ابن الصلاح حيث جاء فيها: (إن الأصل هو إبقاء الكفار وتقريرهم، لأن الله تعالى ما أراد إفناء الخلق، ولا خلقهم ليقتلوا، وإنما أبيح قتلهم لعارض ضرر وجد منهم، إلا أن ذلك ليس جزاءً على كفرهم فإن دار الدنيا ليست دار جزاء، بل الجزاء في الآخرة، فإذا دخلوا في الذمة، والتزموا أحكامنا انتفعنا بهم في المعاش في الدنيا وعمارتها، فلم يبق لنا أرب في قتلهم، وحسابهم على الله تعالى، ولأنهم إذا مكنوا من المقام في دار الإسلام ربما شاهدوا بدائع صنع الله في فطرته وودائع حكمته في خليقته ... وإذا كان الأمر بهذه المثابة، فلم يجز أن يقال: إن القتل أصلهم)(٢٥٥).

إن هذا النص المنقول عن فتاوي ابن الصلاح يتكلم عن قضية أخرى

(٢٥٥) ظافر القاسمي ـــ انظر: الجهاد والحقوق الدولية في الإسلام ص ١٧٦،١٧٧.

اختلف فيها الفقهاء وهي علة قتل الكفار أثناء الجهاد: هل هي الكفر أو هي تعرضهم للمسلمين أثنا تقدمهم لاعلاء كلمة الله عز وجل، وإقصاء الطواغيت من الأرض وإبطال صدهم عن سبيل الله تعالى. وهي مسألة معروفة في الفقه الإسلامي(٢٥٦).

ويظهر أن ابن الصلاح يرجح القول الثاني وهوأن تصدي الكفار للمجاهدين أثناء تقدمهم لاعلاء كلمة الله، وجعلها هي الحاكمة المهيمنة، هو سبب القتل وليس مجرد الكفر، وقد فرعوا على هذا الخلاف حكم قتل من لم يشترك في القتال بفعله أو قوله من الأعداء: فمن رأى أن العلة الكفر لم يستثن من استحقاق القتل سوى ما وردت باستثنائه النصوص، ومن رأى أن العلة هي التعرض والتصدي عمم حرمة القتل على كل من لا يقاتل سواء ورد ذكره في النصوص الصحيحة أو لم يرد.

والذي يدل على هذا ويؤكده أن ابن الصلاح صرح أن غاية قتال الكفار الذي ينتهي عندها هي دخولهم في ذمة المسلمين إن لم يسلموا، والتزامهم بأحكام الإسلام، وليس الغاية مجرد دفع عدوان كان الكفار قد ابتدأوه.

خامسا ـــ وأما استدلال تلك الفئة بقول الله تعالى « **لا إكراه في الدين** » فقد علم مما تقدم أن موضوع هذه الآية الكريمة هو العقيدة وما يلحق بها، فتنفيذا لهذه الآية الكريمة لا يجوز للمسلمين أن يجبروا أحداً بالقهر على تغيير ما يعتقده، وإنما يكون ذلك بالحجة والاقناع، ولذلك لم تعرف في التاريخ الإسلامي حادثة واحدة أكره فيها ذمي على اعتناق عقيدة الإسلام. ولكن موضوع القتال وهدفه أمر آخر هو تمهيد الطريق أمام الدعوة بالحجة والبيان وإزالة العقبات من وجهها. وأولى هذه العقبات الحكام الكفرة وأنظمتهم الفاسدة، وما يحيطون به أنفسهم من القوة والسلطان، فلا بد من كسر شوكتهم وتنحيتهم عن مراكزهم لتسمع كلمة الله بعد ذلك، وليرى الناس

(٢٥٦) انظر تفصيلها عند ابن رشد المالكي ـــ بداية المجتهد ج ١ ص ٤٠١ طبع مصر ـــ نشر مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م.

النور بعد أن عاشوا في الظلمات.

والواقع أن سبب الوهم الذي وقع فيه المستدلون بالآية الكريمة « **لا إكراه في الدين** » على عدم مشروعية مهاجمة الكفار وقتالهم حتى يعتدوا على دولة الإسلام، هذا السبب هو خطؤهم في تحديد معنى كلمة الدين في الآية المذكورة. وأصل هذا الخطأ هو مجانبة الطريق السليم في تأويل القرآن الكريم، وهذا الطريق الذي اتفق عليه علماء المسلمين هو أن نتفكر في الكلمة التي نريد معرفة معناها من حيث اللغة أولا ثم نضعها في سياقها التي جاءت فيه ثانيا ثم ننظر في معنى هذه الكلمة على ضوء أقوال وأفعال رسول الله ﷺ، وعلى ضوء تفسير صحابته الذين عاصروا نزول القرآن وشاهدوا تطبيق الرسول ﷺ لآياته ومبادئه وأحكامه(٢٥٧).

وبالنظر في الآية التي استدلوا بها، فإننا نجد أنها تنهى عن الإكراه في الدين، ومعنى كلمة الإكراه واضح وهو الإجبار بوسائل القوة على فعل أمر من الأمور، وأما كلمة الدين فإنها تحتمل أكثر من معنى واحد؛ فقد يقصد بها الايمان بالله ورسوله، أي الإسلام، وقد يقصد بها نظام الحياة الإسلامي، وقد يقصد بها المعنيان جميعا، فإذا أردنا معرفة المعنى المراد لهذه الكلمة في هذه الآية من تلك المعاني كان علينا سلوك ذلك الطريق في تأويل القرآن الكريم، وسلوكه يؤدي إلى القول بأن المراد بالدين في الآية هو المعنى الأول دون المعاني الأخرى ويتبين هذا مما يلي:

١ ــ إن السياق الذي وردت فيه الآية الكريمة يدل عليه، فإن ما سبقها وما تلاها من الآيات يتحدث عن العقيدة الإسلامية، وخاصة ما جاءت به من التوحيد، وإثبات الصفات الكاملة لله عز وجل، وذلك في قوله تعالى: « **الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بأذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم** »(٢٥٨)، ثم ذكر سبحانه وتعالى: « **لا**

---

(٢٥٧) أبو الأعلى المودودي ــ الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة ص ١٧٥.

(٢٥٨) البقرة ــ الآية ٢٥٥.

إكراه في الدين »، وفي هذا تفسير للدين الذي يجوز الإكراه عليه، وهو ما ذكرته الآية السابقة من وحدانية الله وصفاته.

ومثل هذا يقال في الآية التالية، وهي قوله تعالى « **فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم * الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات** »(٢٥٩)؛ فإنه يدل بوضوح على أن الدين الذي لا إكراه فيه هوالإيمان بالله والكفر بالطاغوت.

٢ ــ وبالنظر في القرآن الكريم، وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام، نجد أن دين الإسلام قد جاء بنظام كامل للحياة، فأوجب وأباح وحرم، وفرض عقوبات لمختلف الجرائم وشرع نظاما ماليا واقتصاديا متميزا، وأنظمة أخرى، يرى أن استقامة حياة الناس لا تكون إلا بها. ومن البديهي أن الأنظمة والأحكام لا بد لها من قوة قاهرة تؤيدها، فالإكراه الذي حرمته الآية لا يتناول هذا النظام الإسلامي للحياة الذي لا ينقطع الظلم والفساد إلا به، فيكره عليه المسلم الذي شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وغير المسلم من البشر لأن منع الظلم مقصود للدعوة الإسلامية(٢٦٠).

٣ ــ كذلك فإن سيرة الرسول ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم، في تنفيذ مضمون هذه الآية يدل على أنهم لم يكرهوا أحدا على اعتناق الإسلام، وإنما كانوا يكرهون من لم يقبلوا دين الله باختيارهم على تطبيق أنظمة الإسلام للحياة، بالدخول في ذمة المسلمين ودفع الجزية التي هي مقابل حماية الدولة الإسلامية لهم.

سادسا ــ وأما استدلالهم ببعض النصوص التي نزلت تنظم مرحلة من مراحل الحركة الإسلامية وتعميمهم لمضمونها على جميع المراحل، وجميع أوضاع المسلمين، فهو استدلال في غير محله ولا يختلف عن استدلال من استدل بقوله

(٢٥٩) البقرة ــ الآيتان ٢٥٦، ٢٥٧.

(٢٦٠) انظر: المودودي ــ الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة ص ١٧٦، ١٧٧.

تعالى للمؤمنين في مكة: « **كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة** »(٢٦١)، على حرمة القتال في كل زمان، وهذا ما لا يقول به أحد من المسلمين، أو يستدل بقوله تعالى: « **أذن للذين يقاتلون** ... »(٢٦٢) على أن القتال مباح، وليس واجبا في جميع الأوقات، وهذا أيضا لا يقول به مسلم يفهم دينه.

ومثل هذه النصوص تلك التي استدلوا بها مثل قوله تعالى: « **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا** »(٢٦٣)؛ فإنها وأمثالها نزلت قبل أن تشتد ساق الدعوة وفي مرحلة معينة.

وهذا ما ذهب إليه جمهور علماء المسلمين من مفسرين وغيرهم في تأويل أمثال هذه الآيات الكريمة(٢٦٤). على أن هناك تأويلات أخرى للآية السابقة ذهب إليها بعض العلماء، ولم يفهم أحدهم من القتال أنه لا يكون إلا دفاعا عن وطن المسلمين وذرياتهم إذا اعتدي عليهم، ومن أظهر هذه التأويلات ما نقل عن الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، وهو ما رجحه أبو جعفر الطبري، ومفاده أن الله عز وجل أمرنا بالقتال لاعلاء كلمته وإظهار دينه، فإذا شرعنا في ذلك لم يجز أن نقاتل ونقتل من لم يحل دون إعلاء كلمة الله، ولم يصد عن سبيل الله، ولم يحمل السيف في وجهنا، مهما كانت مشاعره وعواطفه سواء أكانت مع المسلمين أو ضدهم ومع قومه، فيدخل في هذا عدم جواز قتل نساء الكفار وذراريهم، ومن لم ينصب نفسه للقتال كالرهبان والمرضى والفلاحين، والأجراء من أهل الصناعات ونحوهم(٢٦٥).

ومعنى قوله تعالى « **ولا تعتدوا** » أي لا تقاتلوا من لم يقاتلكم وأنتم تعلون كلمة الله وتظهرون دينه، ويدخل في هذا النهي أيضا ارتكاب المحرمات

---

(٢٦١) النساء ــ الآية ٧٧.

(٢٦٢) الحج ــ الآية ٣٩.

(٢٦٣) البقرة ــ الآية ١٩٠.

(٢٦٤) انظر ابن كثير ــ التفسير ج ١ ص ٢٢٦، والطبري ــ التفسير ج ٣ ص ٥٦١ــ٥٦٢ طبع مصر ــ دار المعارف.

(٢٦٥) انظر المرجعين نفسهما.

أثناء القتل، كالتمثيل بالعدو والغدر وسرقة الغنيمة « الغلول » وغير ذلك مما حرمه الله عز وجل[٢٦٦]، وهذا ما أشار إليه ابن تيمية فيما نقلناه عنه سابقا من قوله: « والقتال لمن يقاتلنا إذا أردنا إظهار دين الله »، وهذا يؤكد ما ذكرناه عند بيان غاية الجهاد في المطلب الثاني، من أن الإسلام يشرع السيف في وجه الأنظمة الكافرة، ومن يحميها ويسخّر لحمايتها، ولا يشرع السيف في وجوه الأفراد إلا أن ينصبوا أنفسهم حماة لتلك الأنظمة.

هذا وإن النصوص التي وضعت الأحكام النهائية لعلاقات دولة الإسلام بغيرها من الدول الكافرة، قد نزلت في السنة التاسعة من الهجرة، ولم ينزل بعدها آيات تنسخها أو تغيرها. وجميعها تطالب المسلمين إذا صاروا في حال شبيهة بحال الأمة الإسلامية في ذلك الزمن أن يقاتلوا المشركين كافة وأن يقاتلوا أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، مبتدئين بأئمة الكفر والذين يلونهم من الكفار.

سابعا ــ ثم إن دعوى أولئك القوم في أن القتال إنما هو مجرد إجراء طارئ لمواجهة العدوان على أرض المسلمين، لا تتلاءم أبدا مع قيمة الجهاد في الإسلام، وذلك الاهتمام والتركيز الذي جعله له القرآن والسنة الشريفة، والذي لا يقل عما جعلاه لأركان هذا الدين من شهادتين وصلاة وصوم وزكاة وحج. بل إن ذلك التركيز على الجهاد ليدل على أنه أصيل في طبيعة عقيدة الإسلام ونظامه، وليس مجرد ملابسة طارئة لفترة معينة يكون فيها المسلمون مهاجمين ومعتدى عليهم.

---

(٢٦٦) انظر المرجعين نفسهما.

خاتمة

تلك هي حكمة تشريع الجهاد في دين الإسلام، ولعل أحدا يسأل بعدما ذكر: هل الجهاد إذن في شريعة الإسلام هجومي، بحيث يجب على المسلمين دائما أن يلاحقوا الكفار بمختلف فئاتهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية ويدخلوا في ذمة المسلمين، ويتنحوا عن الصد عن سبيل الله تعالى؟.

ومع أن الجواب عن هذا التساؤل يجده القارئ فيما تقدم من بيان أهداف الجهاد وحقيقته، إلا أنه لا بد من توضيح أمور في هذه الخاتمة:

إن اصطلاح الدفاعي والهجومي، التي توصف بها حروب أهل الجاهلية في كل زمان ومكان، قد حمل بين طياته معاني ومفاهيم وغايات وأهدافاً تتناقض مع ما تقدم من أهداف الدعوة الإسلامية، التي هي منطلق الجهاد وأساسه؛ ذلك أن حروب الناس بعضهم مع بعض لها غايات لا يلتفت إليها الإسلام ولا يقيم لها وزنا، وهي في حقيقتها غايات دنيوية، سواء أكانت فردية أم طائفية أم قومية.

وغاية الجهاد في الإسلام منع العبودية لغير الله تعالى، وجعل الحاكمية خالصة له سبحانه، وليس الجهاد لحيازة الأرض أو الجاه أو الشهوات أو غير ذلك من مكاسب الحياة الدنيا. ومن هنا فإنك تستطيع أن تدرك معنى كلمة دفاعي أو هجومي عندما تخرج من أفواه القادة الكافرين؛ فإنهم لا يعنون بالدفاعي إلا الذب عن مكسب دنيوي كان قد تحصَّل لهم ولطوائفهم وأقوامهم بأي وسيلة من الوسائل، ولا يعنون بالهجومي إلا الانقضاض على عرض دنيوي من أرض أو جاه أو مركز.

وعلى هذا المعنى الجاهلي لهاتين الكلمتين فإن الجهاد في الإسلام لا دفاعي ولا هجومي، ولا يوصف بشيء من ذلك، لأنه لا تعنيه مكاسب الدنيا فيدافع عنها أو يهاجم من أجلها.

وأما إذا رجعت إلى المعنى اللغوي لهاتين الكلمتين، واعتبرت الدفاعي وصفا لكل إجراء يتخذ لرفع الظلم عن المظلوم، ودفع العدوان عن المعتدى عليه، وردّ المتجاوزين عن الحدود، فإن الجهاد في الإسلام دفاعي بهذا المعنى، ذلك أنه كلف به جند الله لحماية حق الله في الأرض، وهو حاكميته على البشر(٢٦٧)؛ فكل من حكم بغير ما أنزل الله كان ظالما لنفسه وللناس، ومعتديا على حدود الله تعالى كما قال تعالى: « **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** »(٢٦٨). وبالتالي فإن جند الله مكلفون بجهاد كل طاغية، سواء أكان فردا أم مجموعة أم طائفة أم قوما، استولى على مجموعة من البشر، وأخذ يشرع لهم ما لم ينزل به الله سلطانا. وبهذا المفهوم يتضح أن جند الله معنيون برفع أيدي الظلمة عن كل البشر، عندما تتحصل لهم القوة الكافية؛ فهم يدافعون عن حقوق الناس في كل مكان؛ لأنهم يشتغلون لخالق الناس ومالكهم، وإذا نسوا في يوم من الأيام أنهم يشتغلون لحساب الله تعالى، بأن اشتغلوا لحساب أنفسهم، فإنهم يصبحون كغيرهم ويصبح عملهم عدوانيا لا مبرر له عند الله.

وأما مصطلح الهجومي فإن قصد به إعلان الحرب من غير تحقق العدوان على حق الله في حكم البشر، وحق العباد في التنعم بالعدل الإلهي،

(٢٦٧) يجدر بالملاحظة أن الله سبحانه قادر من أول الأمر على إخضاع الناس لحكمه في شئون حياتهم كلها، فهو الذي خلقهم من عدم وأخضعهم للموت والحياة ولو شاء لهدى الناس أجمعين، كما جاء ذلك في كثير من الآيات، ولكنه سبحانه جعل هذا الأمر موضوعا لامتحان الذين يدَّعون الايمان، فطلب منهم الحجة والبرهان، فكلفهم بالجهاد والتضحية من أجل إعلاء كلمته في الحياة الدنيا، ليتميز الصادقون من المنافقين. وأما في الآخرة فلا كلمة لأحد إلا كلمته سبحانه، ولا يقدر جميع كفار الدنيا على مخالفة أمر من أوامره عز وجل، قال تعالى: « ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم، سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرَّفها لهم » محمد ــ الآيتان ٤، ٥.

(٢٦٨) المائدة ــ الآية ٤٥.

فإن الجهاد في الإسلام لا يوصف به، ولذلك لم يشرع قتال المسلمين بعضهم بعضا؛ لأن هذا القتال لا يكون إلا بغيا وعدوانا، اللهم إلا إذا كان لرد الفئة الباغية إلى حكم الله وطريقه وتقويم انحرافها. كذلك لا يشرع قتال قوم قبلوا ذمة المسلمين ورضوا بتطبيق حكم الله في شئون حياتهم، وإن لم يعتنقوا عقيدة الإسلام، لأنهم بقبولهم هذا اعترفوا بحاكمية الإسلام عليهم، فيكون قتالهم بعد ذلك عدوانا.

وأما إذا قصد بالهجومي إعلان الحرب على قوم قبل أن يعلنوها هم أو قبل أن يحتلوا أرضا للمسلمين، فإن الجهاد في الإسلام قد يكون هجوميا بهذا المعنى، إذ لا يشترط في شرعيته سبق اعتداء مادي على المسلمين في أراضيهم أو أموالهم أو أشخاصهم(٢٦٩)؛ ذلك أنهم ليسوا مسخرين للدفاع عن هذه الأمور فحسب، وإنما هم مسخرون للدفاع عن أمر أهم وهدف أسمى هو حق الله في حكم الناس وتسيير أمورهم وفق مناهجه الحكيمة. فكل عدوان على هذا الحق يكفي مبررا لتحرك جند الله لدفعه، ولو لم تصب أموالهم وأراضيهم وأنفسهم بسوء.

فالجهاد الذي تقوم به أمة الإسلام للشعوب الكافرة، فيه شبه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يصدر عن مسلم باتجاه مسلم عاص أو فاسق، بل إن حقيقة كليهما واحدة هي الدفاع عن حدود الله في الأرض حتى لا يتجاوزها الطغاة. وكما أنه لا يجوز لمسلم أن يقول لآمر بالمعروف أو ناه عن المنكر لا حق لك في ذلك، وأنت فضولي(٢٧٠)؛ فكذلك ليس لأحد أن يتهم أمة الإسلام بالعدوان عندما تهب لنجدة المظلومين في بقاع الأرض، ممن سامهم الطغاة الخسف والذل بما يشرعون لهم وبما يسوسونهم به.

---

(٢٦٩) انظر المرغيناني والكمال بن الهمام والبابرتي وسعدي جلبي ــ الهداية وفتح القدير والعناية وحاشية سعدي جلبي ج ٤ ص ٢٨٢.

(٢٧٠) انظر ابن عابدين ــ الحاشية في كتاب البيع عند كلامه عن بيع الفضولي وتفسيره لمعنى الفضولي.

الفهرس

